تراتيل منسية

رواية

تأليف

عماد البليك

البليك، عماد

تراتيل منسية: رواية /عماد البليك؛- الجيزة: أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ٢٠١٩ .

٢٥٦ ص ,٢٠ سم

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٣٩٩ ٧٨٠٩

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

تراتيل منسية

رواية

تأليف

عماد البليك

رئيس مجلس الإدارة

عادل المصرى

عضو مجلس الإدارة المنتدب

نوران المصرى

رقم الإيداع

٢٠١٩/١٣٠٥٦

الترقيم الدولى

٩٧٨-٩٧٧-٣٩٩-٧٨٠-٩

الطبعة الاولى

الكتاب : تراتيل منسية

المؤلف : عماد البليك

الغلاف : عصام محمد

الناشر: أطلس للنشروالإنتاج الإعلامى ش.م.م

٢٥ ش وادى النيل – المهندسين – الجيزة

sales@atlasdic.com

www.atlas-publishing.com

تليفون : ٣٣٤٦٥٨٥٠ – ٣٣٠٤٢٤٧١ – ٣٣٠٢٧٩٦٥

فاكـــس : ٣٣٠٢٨٣٢٨

****

الإهداء

إلى كل تائه

يبحث عن أرضه..

نفسه.. وأمله!

سوسو

كانوا يسمونني في فريق الأكروبات الوطني السوداني.. سوسو، أما اسمي الحقيقي فهو سوسن.. سوسن محمد علي.. طبعًا يشبه اسمي الثلاثي «محمد علي باشا» الذي حكم مصر في القرن التاسع عشر، لكن على أية حال فجذوري تعود إلى مصر عندما جاء جدي لأبي من هناك مع حملة كتشنر لغزو السودان سنة ١٨٩٨م، كان مترجمًا في الجيش الإنجليزي بعد أن درس اللغة العربية في معهد بالإسكندرية، ولكي أكون دقيقة جدًا فجدي «علي باشا».. اسمه الحقيقي «باروخ جولدشتاين»، هذا يعني إنني انحدر من سلالة يهودية حتى لو أننا أصبحنا مسلمين ولو لبضع من الزمن، أنا وقبلي أبي، أما جدتي لأبي فقد ظلت تمارس طقوسها كيهودية وتذهب إلى الكنيس الوحيد بالخرطوم، إلى أن ماتت بعد مولدي في سنوات طفولتي..

أنا بنت شقية ولا أدري من أين جئت بهذه الشقاوة فقد نشأت في بيت شبه مغلق، يندر أن التقي بناس أو تدخل شخصيات جديدة في حياتي، كان أبي رغم شهرته اجتماعيًا يُطبق على نفسه.. تحديدًا على حياته العائلية بالأسرار والغموض. كان يصنع حجابًا حاجزًا كثيفًا بين عمله ووجوده بين الناس في الخارج وبين

حياتنا في البيت، وهذا انعكس على تربيتي طبعًا، لكنني سرعان ما تمردت على هذا السكون القاتل.

كان ذات نهار يوم قررت أن انتصر لشقائي ورغبتي في الخروج عن العزلة، فعزلتي ليست في البيت فحسب إذ تمتد إلى المدرسة، حيث كان أبي يفرض وصاياه بشدة ويُوصي المدرسين بأن لا أخالط الآخرين، ولا أدري أي سبب يدعوه لكي يعاملني بهذا الشكل.

كثيرٌ ما ورد السؤال لذهني، وأنا أفكر هل أنا مسؤولة عن تاريخ عائلتي؟ فمن حقي أن أعيش حريتي وهويتي الذاتية.

يعرف المعلمون في مدرسة كمبوني الخاصة أني ذكية، متفوقة في دراستي وربما يهمسون سرًا، اليهودية الشاطرة.. لكني قررت أن أغادر كل هذا العالم وتميزي الذي لا يشك فيه أحد ممن يعرفني، لرغبة لمعت في ذهني فجأة بأن أترك المدرسة لأتفرغ لتعلم الألعاب البهلوانية والحيل الماكرة لأفراد السيرك التي تجتذب الناس، قد يكون ذلك تفكير دماغ طفلة أو صبية بالأحرى، إذا نُظر إلى الأمر من الخارج، أما بالنسبة لي فأنا أعلم تمامًا إنني ناضجة أعرف كيف أفكر وما الذي أريده بالضبط. أعرف أن عقلي يتجاوز لحظتي. لكن قد لا يكون الأمر بهذا التبسيط المُخِّل، فالقبض على الماضي صعب جدًا.

●●●

بعد مضي السنوات وأنا أجلس الآن في بهو فندق «دان بانوراما» في يافا أو يافو بالعبرية، يصعب عليّ أن أفهم جملة الظروف التي ساقتني لأكون لاعبة الأكروبات الأولى في السيرك الوطني الإسرائيلي ومن ثم المدربة الوطنية الأولى في هذا المجال.

طبعًا هو تاريخ عريض وممتد بدأ منذ تلك الأيام الباكرة من حياتي. ومع مضى الحياة والسنين ليس سهلاً على الإنسان أن يفهم كيف تتبع الأفكار أو تتحقق، يكون عليه أن يمسك على الراهن والمتجسد في اللحظة، وهذا ما يحدث معي الآن.

فندق «دان بانوراما» مكان محبب لي جدًا، فيه ولأسباب أيضا غامضة استعيد طفولتي وصباي، صاحب الفندق ينحدر من يهود السودان.

كان بإمكان أبي أن يكون مثله أو أن يكون مالك هذه البناية ذات الطوابق العشرة أو.. لكن دائمًا للحياة خيارات أخرى لا يمكن للإنسان أن يفهمها بالضبط.

أبي هو الآخر سيظل غريبًا عني، مثل شيء غامض أيضًا يصعب القبض عليه أو تحديد كينونته.

في «دان بانوراما» قريبًا من البحر المتوسط.. أشعر كأنني في الخرطوم القديمة، في تلك الأيام البعيدة. أنا تلك الفتاة الذكية

الراغبة في الانفلات من المجتمع. البنت الشاطرة والفاتنة.. نعم كنت ولا زلت فاتنةً وهذا يحتمل الكثير من القصص الأخرى التي حدثت معي في العقود الأربعة الماضية.

فأن تكوني صبية جميلة ومتحررة في أسرة تحاصرك بالعزلة يبدو ذلك صعبًا جدًا وقاسيًا.

وأن تكوني كذلك يتيمة فقدت والدتها في الصغر يضيف ذلك عاملاً آخر للقيود التي تفرضها الحياة، قوانين الوجود الإلهية التي لا يدري الإنسان كيف لها أن تُسيَّر هذا العالم الأرضي.

أكثر من ذلك أن يجتمع كل هذا مع القراءة والتحرر الذهني بأن يشتغل الإدراك بطريقة مختلفة عن السائد والمألوف في المجتمع حولك، فمعنى هذا أن الصورة أمامك تكتسب حيوية غامضة خاصة مع تعقد المشهد في محاولة لملمته لكي يحكي عمّا كان يحدث بالضبط؛ إذ سرعان ما يعود الضباب أو الغبار لكي يغطي المساحات أمام الإنسان.

يصبح الأمس بعيدًا وغريبًا وكأنه لم يحدث.

تغيب الذكريات وتعيش في جهة مجهولة من عوالم الكائن المفقودة، ليبدأ البحث عن ذاته دون أن يعرف حقيقته بالضبط.

●●●

الجد باروخ

تعطلت القاطرةُ البخارية في المنطقة الواقعة في صحاري الشمال. يسمونها العتاميـر.. رياح عاصفة تضرب في كل اتجاه وبرق قوي، كأن الأمطار سوف تهطل بعد قليل.

لا شيء يدعو للطمأنينة. وبالنسبة لي فأنا خائف جدًا. فمنذ يومين وقد تغيرت طبيعة الطقس، قالوا لنا أشياء وحدثت أخرى.

يبدو أن المناخ هنا يصعب التكهن به، وهذا لابد سوف يجعلني قلقًا جدًا في مستقبل أيامي إذا تحقق لي الاستقرار هنا، في هذا البلد وكان لي أن أشرع في المهمة التي جئت لأجلها الترجمة لسيدي المفتش «دونالد»، كنت مكلفًا بملف القضايا الزراعية، حيث كان للإنجليز، ملف خاص بكل موضوع معين.

لكي أقوم بعملي بشكل جيد، وأثناء مسامراتي المستمرة مع دونالد طوال الرحلة إلى السودان، كنت أقضي الوقت في صقل خبراتي بهذا المجال، توليد محاصيل زراعية تجارية تفيد المملكة المتحدة وتدعم اقتصادها المتذبذب هذه الأيام بالذات، بفعل الحروب الضروس في مناطق مختلفة من العالم.

سيكون على أي حال من صميم اهتمامي أن أعرف كل تفاصيل الحبوب ومشاكلها بوصفي مترجمًا لا أكثر.

مرات أتخيل أن القضية كلها حيلة لا أكثر فالاقتصاد الإنجليزي قوي وقادر على الصمود لسنوات طويلة، لكن الحكومة البريطانية تريد أن تخدع الرأي العام، فميزانية الحرب باتت مرهقة، والمواطن يدفع الضرائب والعوائد ولابد له من أن يشعر بنتيجة إيجابية، عندما لا يجدها سوف يبدو في الغليان.

أشار لي المفتش دونالد الجالس بجواري على الأرض، في حين كنّا نأخذ استجمامة وسط هذا الخريف غير المفهوم في صحراء الشمال السوداني، بأن «بريطانيا لن تصبح كعهدها في الماضي، فحزب العمال حديث النشأة سوف يُغيّر الكثير من الأمور».

لم أكن أفهم ماذا يقصد بالضبط!

ولم أسأله، فعادته أن يثرثر وفي النهاية تكتشف أنه لن يقدم لك حقيقة مفيدة؛ ولو واحدة، وقد يكذب كثيرًا، وها هي إحدى كذباته لكنها لن تنطلي عليّ.

«أتعرف أن السيد كير هاردي هو صديقي؟»

«صديقك.. مممممم!»

«لا تصدقني!»

«أبدًا.. لكنها فرصة كبيرة لك. يبدو أنك سوف تدخل الوزارة قريبًا سيد دونالد»

«لكن هذا حزب ناشئ يحتاج وقت طويل حتى يثبت قدرته»

قاطعته، لمعت فكرة في ذهني:

«على العكس إن ميلاد حزب العمال يعني أن اليسار صار قويًا في بريطانيا، وهذا يدل على مرحلة عاصفة قادمة.. لا تنسى أن ماركس يعيش بينكم وهو في قبره بلندن»

بتنا في الصحراء وهطل المطر قويًا وفي الصباح التالي، تحركت القاطرة البخارية بنا، كانت مكونة من عدد قليل من العربات التي تحمل مطبعة صغيرة من النوع الذي يطبع الأوراق حجم الفولسكاب، أحضرها معه دونالد إلى الخرطوم لتجهيز الأوراق الحكومية الضرورية للمصالح المختلفة.

كانت هناك عربة أخرى بها عينات من الحبوب الزراعية المحسنة التي من المفترض أن يقوم بتجريبها خلال الفترة المقبلة، ولابد أنها سوف تأتي ثمرة جيدة فالدراسات الأولية التي أجريت حولها من قبل، تدلل على ذلك. رغم أن دونالد يرتاب أحيانًا بقوله:

«الدراسة شيء والتجريب الواقعي أمر آخر. يجب أن أنتظر لأرى بنفسي»

●●●

كانت «ياعيل» تعاني من الطقس، خاصة الغبار القوي الذي سبق هطول المطر بغزارة في هذه الصحراء، ولهذا فضلت أن تنام في داخل الكوخ الحديث المبني من الطوب الأحمر، وهو جزء من مبنى المحطة التي سوف يتكرر مشهدها كلما تقدمنا شمالاً إلى أن نصل العاصمة بعد يومين، لقد تأخرنا طبعًا بحسب دونالد، وهنا عليّ أن أصدقه، لا سبب يدعوه للكذب هذه المرة.

أول ما وصلنا الخرطوم حملتُ ياعيل إلى المشفى المركزي قريبًا من محطة سكة الحديد، لإجراء فحوص تراها روتينية وأراها ضرورية لأجل الحفاظ على طفلنا الأول، الذي أظن عمره في حدود الشهر السابع. استقبلونا بحفاوة وشعرنا بأننا لسنا غرباء، وقالت لي ياعيل ونحن نخرج:

«الإنجليز هنا أكثر حميمة من في بلدهم»

لم أفكر في الموضوع كثيرًا، أما هي فقد كانت دائمًا ما تهتم بردة فعل الناس حولها، لديها عقدة ما وإذا ما واجهتها بذلك سوف تغضب وتنفي تمامًا:

«لست كما تتصور.. معقول كل هذه السنوات ولا تفهمني»

كان زواجنا قد بلغ عامه العاشر وقد تأخر إنجابنا خمس سنوات لقرار مشترك، إذ كان عليّ أن أكمل دراساتي العليا في

الترجمة بالإسكندرية، ومن ثم يكون لي أن أتفرغ لتربية طفل؛ وهذا واجب أخلاقي ودينـي أيضًا.

طوال الانتظار الممل تشعر ياعيل من وقت لآخر أنها يجب أن تصبح أما لأنها خلقت لهذا الغرض، فالله جاء بها لكي تمنح الدفء والحنان لكائن صغير هو طفلها الذي تشتاق أن تحمله ذات يوم. ولم تكن تدري ولا أنا طبعًا أن ذلك سوف يكون في مكان آخر غير بريطانيا أو مصر التي تعلقت بها حياتنا.

●●●

سوسو

لا أتذكر كل الأشياء جميعها.. الأسباب التي قادتني لكي أقرر ما حدث ليشكل مسيرة حياتي، ويصنع نجاحي وسيرتي. ما يمكنني أن أقوله إنني اتخذت القرار بمفردي.

دائمًا كانت حياتي حقًا لي، كنت قد شاهدت فريق الأكروبات الوطني على شاشة التلفزيون المحلي يؤدي مجموعة من الاستعراضات بمناسبة عيد الثورة.. مايو المجيد.. ذكرى تولي جعفر النميري الحكم في ٢٥ مايو ١٩٦٩م ذلك اليوم الذي شكّل كارثة على أبي، وربما كان من دواعي العقدة التي يعيشها بظني، أن انحدر من الثراء إلى الفقر.. لسنا فقراء لكن وضعنا المالي لم يعد كسابق عهده.

كان النميري قد اتخذ قرارًا غير مدروس فيه تهور وشيء من الحسد بمصادرة ممتلكات وأموال الكثير من الأجانب ومنهم عائلتنا. ولم يشفع لأبي أنه أصبح مسلمًا منذ شبابه وفارق دين آبائه دون أن يسمع وصية جدتي، والدته بأنه مهما فعل لن يرضوا عنه فعليه أن يتمسك بيهوديته.

ولي أن أتخيل الآن أن قرار أبي بأن يصبح مسلمًا كان يقوم على اعتبارات مصلحية بحتة، بما يخدم مشروعه كرجل أعمال ومصدر محاصيل زراعية للخارج.

ومضت أيام كأنه ارتد؛ رأيته قد هجر صلاة المسلمين وبدأ في العودة للتراتيل اليهودية وقراءة التوراة ومرات كان يذهب للكنيس الذي لم يكن قد أغلق بعد، وإن كان ذهابه متكررًا وفي ساعات متأخرة من الليل ربما كان ما زال خائفًا أن تنقلب المعادلة فجأة في بلد يفتقد للتوقعات، ومرات كنت أفكر أنه ربما ما زال يعيش تنازعًا بين حقيقته كيهودي أو مسلم متنكر لكي يجاري المجتمع، رغم إدراكي أنه نجح في أن يكون سودانيًا في معظم تقاليده وتصرفاته كأن يلبس العمامة والجلباب ويحمل العصا ذات الرأس المذهب وأن يشارك الجميع في كل المناسبات من أفراح وأحزان وأن يتكلم بطريقة دارجة بحتة. لا شيء يمكن أن يفضحه سوى لون البشرة التي كانت بيضاء بعكس السمرة الغالبة في المجتمع.

●●●

اتخذت القرار وأنا أشاهد الفرقة، رأيت أنني انتمى لهذا الفعل، أن أحرك جسدي بحرية تامة. لن أظل سجينة هذا الجسد ولابد أن أنطلق به، أريد أن أكون حرة تمامًا. كنت أكلم نفسي وأنا أشاهد البنات وهن يقفزن ويمارسن براعة مبهرة.

لاحقًا استعيد ذلك فأقول إن قناعات الإنسان وهواياته ورغباته تتشكل في الطفولة من أسباب غامضة هذا حقيقي..

ليس للإنسان مهما بلغ من الذكاء أن يعرف لماذا هو كذلك؟

ولماذا أحب هذا الشيء وكره هذا؟

ولماذا أصبح مثلا مطربًا ولم يصبح لاعب كرة قدم؟

أو لماذا أحب أن يدرس الفلسفة ولم يدرس الطب؟

رغم أن هذا القانون في المهن بالذات وليس في الهوايات ينطبق على الأناس الصادقين مع ذواتهم، الأحرار بحق والشجعان على مواجهة سطوة الأهل في هذا الباب.

ليس من قبيل التذكير أن أبي كان يريدني مهندسة معمارية وكان يخطط لي بأنه سيأتي يوم نستعيد فيه أموالنا وعقاراتنا العديدة المصادرة والواقع أغلبها بوسط الخرطوم لأبدأ مشروعي بترميمها أو هدمها وقيام بنايات كبيرة بدلاً عنها.

كان يخطط لمشروعه وهو جالس في صالة البيت ذات المشربيات الخشبية ويترنم بأغنية للمطرب عبد الكريم الكابلي الذي كان من أصدقائه المقربين له.

في ذلك اليوم، وكان الوقت نهارًا وكنّا في إجازة العيد الوطني، انتابني شعور خفي يصعب معرفة منبعه أن لديّ قدرة داخلية على تحويل أنوثتي المبكرة إلى مصدر جذب من نوع آخر، فقد ظهرت علامات البلوغ عندي قبل أوانها. كما وصفني أحد المدرسين بحذر خشية أن يصل الأمر لأبي وهو يقول «وردة إسرائيل» وكان يظن أنني لم أسمعه وأنا اجتاز الممر أمام مكتبهم إلى الفصل، وقد مثلت أنني لم أسمع أي شيء، غير أني أدركت أن ثدييي الجميلين ومؤخرتي وكاملة جسدي يحكي عن رواية مثيرة لأولئك الذين لا يعرفون كيف يضبطون مشاعرهم ومثلهم هذا المدرس الذي يبدو أنه من هذا النوع.

الجذب الآخر كان يعني له غواية يفرضها الجسد ولكن بشكل غير أناني، عندما يكون ذلك الجسد الرشيق مصدرًا للمتعة البصرية التي يشعر بها أي إنسان يشاهده كما تفعل هؤلاء البنات أمامي على الشاشة، وهن يظهرن بالأسود والأبيض، لم يكن التلفزيون الملون قد عرف بعد عندنا وربما في العالم ليس لدي من فكرة دقيقة عن الأمر. تلك الغواية التي ينساب فيها الإنسان حرًا طليقًا وهو يقفز في الفراغ متحديًا قوانين الجاذبية والالتصاق بالأرض، وهو مجال آخر غير الاستغلال السيء للجسد البشري وبيعه لإنسان بعينه أو حفنة من الرجال البائسين، فيما يسمى بالدعارة.

في تلك الطفولة كنت أعرف أمورًا كثيرة رغم الحصار الذي يحاول أبي أن يفرضه علي، فقد سمعت عن بنات الليل في شارع الجمهورية بوسط الخرطوم واللائي لا يستجبن لأي طلب عادي، حيث لديهن شروط كثيرة لا تنتهي، تبدأ بسيطة ثم تتعقد، البداية غالبًا ما تكون بمبلغ مالي زهيد لأولئك الأثرياء الارستقراطيين والأفندية التكنوقراط من رواد البارات والمقاهي في الشارع ليلاً، الذين يأتون بسياراتهم ماركة مرسيدس بينز وهنتر وغيرها من موديلات حديثة.

يبدأ الليل بعشرين جنيهًا تُدفع ثمنًا لحذاء راقٍ يتم بيعه من محلات بواجهات زجاجية لامعة ذات إضاءة كثيفة بحيث يذهب ظلك بعيدًا وأنت تسير بجوارها ملتحمًا بظلال الناس السائرين في الشارع وأغلبهم سُكارى.

قانونهن عدم الاستجابة للعادي، خاصة إذا ما كانت الواحدة منهن تعرف أنها مصدر للإغواء والإثارة، التي تخدع نفسها سوف لن تحصد سوى الخسارة لتعود إلى البيت حزينة وكئيبة ساعة يحمل كل من الرجال فتاة في عمر حفيدته وينطلق بها إلى مكان مجهول.

هؤلاء هم صناع القرار في البلد.. الموظفون الكبار.. أساتذة الجامعات.. المثقفون من زمرة السلطة.. المطربون المتعجرفون.. رجال الأعمال الخائنون للشيوعية التي دعا لها النميري؛ ثم

خرقها.. المحاربون السابقون في حروب خاسرة.. لا استثناء، ما دام عندك المال.. القيمة التي تفصل بين العبد والسيد، وتجعلك عاقلاً عندهم أم مجنونًا.

تتم عملية شراء الحذاء عادة من أرقى الماركات العالمية.

كانت الخرطوم مثل باريس لا سلعة إلا وتجدها في شارع الجمهورية.. أو السوق الأفرنجي كما يسميه البعض، في مقابل السوق العربي على الجهة الجنوبية منه والذي تخصص في السلع لذوي الدخل المحدود والطبقة الوسطى التي بدأ النميري في سحقها ومحوها من الوجود.. طارد العمال في مدنهم مثل عطبرة وشردهم وأنهك سكة الحديد وأغلق المصانع الناجحة التي كانت تخرج منها المظاهرات في مدن السودان، تحولت تهمة الشيوعية إلى عار كبير وإلى جريمة لا يغفرها التاريخ.

الشيوعي كافر ويجب التخلص منه والرمي به في الجحيم قبل أن ينال نصيبه من العذاب في نار الله الموقدة.

●●●

وأنا أتجول في المنطقة حول بيتنا الواقع في شارع خلفي لشارع الجمهورية أستطيع أن أفهم كل شيء. ليست الحياة معقدة لمن يرى ويشاهد بعين ثانية ويتفحص ما وراء الحكايات الظاهرة،

فليس العالم في مظهره أبدًا، إنه في الغريب والمتخفي والغائب ومن خلاله ندرك المعنى البسيط للحياة.

كنت أخرج من البيت خلسة في أوقات يكون أبي مشغولاً فيها لأي سبب كان أو خارج البيت، أهرب متخفية وأنا صبية لأرى ذلك القلق المحموم.. الحياة في شارع الجمهورية مع أول المساء، بائعات الهوى والجسد الأسمر.. بعضهن سودانيات وهناك أثيوبيات من الحبشة وقليل من بنات سمراوات قادمات من غرب أفريقيا.

خلال فترة ليست طويلة كنت قد كوّنت معلومات عميقة بالسماع والنظرات والتلصص حول سعر كل واحدة منهن، ومتوسط دخلهن اليومي والشهري لمن تكون متوسطة الجمال أو بارعة فيه، وصرت أكوّن حسبة بشأني لو أنني دخلت هذه الحفلة.

فهمت كذلك من خلال نظرات الناس المتفحصة والأقاويل؛ أنني يمكن أن أكون بائعة هوى من الدرجة الممتازة، وهذا يعني راتب محترم جدًا لا يقل عن مائتي جنيه في اليوم الواحد.. هذا بإفتراض أن المضيف كان في حدود العطاء العادي ولم يكن كريمًا مضيافًا؛ إذن لأفاض بالكثير من المال وربما وصلت لخمسمائة جنيه. فجمالي ينتمي للممتاز يعني أنني مثل قطار درجة أولى يسمى «الممتاز»، مثل بص سفري مميز يسمى بالممتاز كذلك.. حتى التمباك صار يصنف بناء على هذه الشاكلة بعد أن شاع

هـذا الوصـف وأصبـح يطلـق علـى أشـياء كثيـرة.. في القطـارات والفنـادق والمطاعـم العامـة والبـارات وبالطبـع بائعـات الهـوى الليلـي.. وقـد فهمـت أن النـاس انقسـموا لطبقتـين في الحيـاة عمومًـا.. فـوق وتحـت.. ممتـاز ورديء.. ممتـاز مؤهـل لكـي يتعامـل مـع الممتـاز ويقتنيـه ورديء في الطبقـة السـفلى، وقـد انسـحق الوسـط، تدمـرت الطبقـة الوسـطى..

لقـد دمـر النميـري الشـيوعية تمامًـا مثلمـا كان يحلـم بهـا ذات يـوم أن تحكـم السـودان عندمـا جـاء بانقلابـه ومـن حولـه زمـرة الماركسـيين.

كان شـارع الجمهورية يفضح نهاية العصر الماركسـي وكان الناس يسـيرون مـا بـين هـذا الشـارع والآخـر المـوازي لـه باتجـاه القصـر لتكتشـف هاتـين الطبقتـين في المجتمـع.. درجـة أو طبقـة أصحـاب الدخـل العـادي والمحـدود مـن عـوام النـاس، وطبقـة المؤثريـن الذيـن تثقـل جيوبهـم بـرزم الجنيهـات الورقيـة وكلمـا ثقـل الجيـب دلّ ذلـك علـى رفعـة الحـال، وكان الرجـل قـادرًا علـى اجتـذاب فراشـات الليـل.

●●●

جـاءت أيـام كان أبـي مشـغولاً مـع أمـي المريضـة، كنـت أرى مـن سـطح بيتنـا وأنـا أفكـر في مصيـر أمـي، الكثيريـن مـن رجـالات الليـل ونسـائه، كانـوا يغـادرون الحانـات في الهزيـع الأخيـر علـى صهـوة

السيارات الفارهة ماركة مرسيدس بينز، كان لأبي مثلها اثنين باعهما بسبب العوز في السنين التي تلت التأميم وهو يعاني في سبيل توفير لقمة العيش لنا والدواء لوالدتي الذي كانت ميزانيته تفوق حدودنا.

أرى السيارات ومعظمها يحمل لوحات حكومية، تبدأ في مغادرة الشارع من على الجانبين ليهدأ رويدًا.

اللوحة تعني أن السيارة خصصت لشخص معين ممن رضي عنه الرئيس أو الوزراء، أولئك الذين سرقوا أموال أبي، فقد جاء جدي إلى هنا وبنى مجدًا من الصفر والنتيجة أن هذا العطاء يقابل بالنهب.

اسمع أبي يردد مثل هذا الكلام أحيانًا.

أفهمه جيدًا.

كنت قادرة على الفهم السريع والاستيعاب لما يدور حولي، أسئلة معقدة على الكبار كنت أفكر فيها بطريقة جيدة ومختلفة.

أراهم في الشارع رجال يجرجرون أطراف جلاليبهم وهم يترنحون من الإفراط في شراب الويسكي والبيرة وما تجود به بارات شارع الجمهورية.

معظمهم يكون قد غادر الحانة ولم يدفع الحساب إما لأنه صاحبها أو لأن الدولة هي التي تسدد الفاتورة.. هي التي تدفع بالنيابة عنه شهريًا، عندما يكتمل الشهر تقدم ورقة بالمبيعات إلى الجهة الحكومية التي يعمل بها مرتاد الشراب.. ويحدث ذلك دون أدنى خجل، ولأناس معينين طبعًا.

نعم كان لديّ معلومات كافية عن كل شيء يدور في ذلك المكان.. فأنا ابنة الشارع الأكثر شهرة في الخرطوم، فقد ولدت وعشت طفولتي في بيت واسع لا يبعد سوى خطوات قليلة عن مركز المدينة، طبعًا هذا البيت ضاق بعد الأزمة التي مرر بها أبي، فأخذوا نصفه وتركونا في النصف الآخر الذي كان مخصصًا كمضيفة لبعض أصدقاء أبي ممن يزورونا والذين كانوا يأتون من بلدان أوروبية ومن مصر وتركيا والشام، وهم في الأصل معارف جدي ومعظمهم تجار يأتون لمصالحهم وأعمالهم، هذا الجزء لا يزال بظني متسعًا مقارنة ببيوت أسر أخرى في البلد.

ورث أبي هذا البيت عن جدي الثري الذي يشار إليه في مجتمع الخرطوم، ولم يكن لأبي من أخوان، كان وحيدًا مثلما أنا وحيدة، رحل جدي قبل أن أولد ليتولى والدي كل شيء من الأعمال التجارية والصفقات ويمشي في خطى أبيه المترجم الذي صار عَلمًا وترك مهنته رغم أنه احتفظ بالقواميس وظلت كجزء من ميراث العائلة، يمكنني أن أراها أمامي إلى اليوم تتراءى لي. كتب ضخمة مطبوعة في القاهرة وأنقرة وبراغ.

كان جدي يجيد أكثر من لغة كما اشتهر بذلك وقد ساعده ذلك لاحقًا على بناء علاقاته التجارية وتوسيع دائرة مصالحه التي شملت بلدان أفريقيا، لكن منذ قيام الحرب في جنوب البلاد فقد بات صعبًا عليه أن يستمر في التجارة مع بلدان البحيرات في وسط القارة واكتفى بالبلدان الشرقية والأوروبية.

وقد بنى جدي ذلك المجد من موظف بسيط مع المفتش الإنجليزي دونالد إلى أن أصبح رفيع الحال، وتاجر محاصيل وأعشاب نادرة كالسنمكة التي تستخدم في صناعة الأدوية، وجدها تنمو في السودان ولا أحد يهتم بها ينظرون إليها على أنها نبتة ضارة، فحوّلها إلى ثروة.

بعد قيام الحكومة الجديدة بدأت الكارثة، حيث قررت بنا الأيام، وكانت قرارات السرقة المقننة باسم التأمين والمصلحة العامة ونسج رسالة إنسانية تخدم عموم الشعب، وفي ظرف وجيز كنّا ضمن الكثير من الأسر التي واجهت مهب الريح لتظهر طبقة جديدة من التجار الطفيليين الذين نمو كالأعشاب الضارة. لكنها لا يمكن أن تكون دواء بأي حال. وبسطت الحكومة لأولئك الذين استولوا على مالنا في الأساس، التسهيلات ويسرت لهم الاستيراد والتصدير والجمارك ليكونوا بين ليلة وضحاها من وجهاء البلاد.

هكذا تغير كل شيء.. وكأن ذلك حدث بلا مقدمات.. كان مثل زلزال أو فيضان مدمر.. غير أن التحليل الخفي للأمور يكشف العكس.. فلابد من أسباب كامنة تحت السطح، فمنذ أن حلّ نظام النميري كانت المقدمات تنسج خيوطها، المؤامرات الخفية.. العداء ضد الأجانب.. كانت خيارات الهولوكوست الذي كان أبي يعيش مضاضته في من يسميهم أقرباء بعضهم أصدقاء طفولة لأبيه كما يقول، تنفتح من جديد وفي بلد آخر.. ليس ضدنا كيهود تحولوا للإسلام بل جاليات أخرى كالأقباط الذين سيكون على بعضهم أن يهاجر إلى الغرب واستراليا أو يعودون مصر، وهي لم تكن خيارًا استراتيجيًا كذلك.

وهناك الأتراك الذين عاشوا كثيرا في هذا البلد، ما يقارب المائة عام وأكثر، بعضهم وجد نفسه يفكر في الهروب وإن كان وضعهم أفضل منّا بكثير فقد عرفوا كيف يوظفون معرفتهم بتراث البلد وإنسانه في إبقاء مصالحهم.

بعد وقت وجيز اكتشف أبي أن العداء يشمل كذلك «سودانيين أصليين «كما يسمون أنفسهم.. فقد ضرب النميري جزيرة وسط النيل الأبيض لكي يقضي على تمرد آل المهدي ومن ثم يصادر ممتلكاتهم.

لا امرئ إلا وكاد يصرخ، بات الضيق والتذمر جليًا عند كبار التجار الذين يشكلون عصب الاقتصاد القومي، وفي أقل من لمح البصر أراد ستالين السودان أن ينسج دولته الشيوعية الحلم دون أن يكون قد قرأ «رأس المال» لكارل ماركس أو فهم ما هي أسس الشيوعية بالضبط، وكان يظهر في التلفزيون ليردد الرجعية.. سنقضي على الرجعية، سنحاربها. واكتشف أبي أن الرجعية تعني غير مدلولها المفترض.

●●●

لم تحدث التحولات في بيتنا من فراغ، كانت إذن تلك المقدمات التي يمكن تلمسها منذ ٢٥ مايو ١٩٦٩م يوم عزفت موسيقى الجيش تعلن عن انقلاب جديد وسط حمى العساكر الذين باتوا يحكمون بلدان القارة الأفريقية وبقية الدول العربية، كان قد زُجّ بالمعارضين في السجون، ليتضح أن ثمة خيط داخل خيط.

كانت العقدة تتسع دون أن يبرز محلل متمكن للتاريخ ليفك هذه الحبكة، أن يفسر كيف جرى ما جرى، بأن يحدث الانقلاب الثاني داخل النظام، وأن يسرع «الجنرال ستالين» إلى القضاء على الانقلابيين «الرجعيين» الذين كانوا شركاء في الحكم وانتهت معهم أسطورة الحلم الشيوعي، ولم ينته التأمين ولا المصادرة، لأن النافذين الجدد من التجار حافظوا على مصالحهم وعرفوا كيف يستفيدون

من الغلط الذي وقع فيه الانقلابيون الذين حاولوا إزاحة الجنرال والانفراد بالسلطة وحدهم، وفشلت خطتهم ليبقى النميري متشبثًا بالسلطة لأطول فترة بفعل البطانة التي تكونت حوله من حملة المصالح التي تتجاوز الأيدلوجيا وتتلون مع ألوان الوقت والفصول.. الرواد الليليين لشارع الجمهورية وعاشقي العاهرات.

يمكن القول إنه إلى سنة ١٩٧٣م كان والدي محمد علي قادرًا على بسط نفوذه التجاري على مدن عديدة في البلاد من ود مدني لعطبرة لبورتسودان في الشرق ونيالا في أقصى الغرب..

صحيح أنه لم يعد من كبار المصدرين والمستوردين في مجاله.. المحاصيل والأعشاب والأدوية.. غير أنه ومنذ تلك السنة تعقد الوضع تمامًا.. لأن الدولة علمت ببعض الممتلكات التي أخفاها عنهم أبي في المدن البعيدة فأسرعت إلى التهامها لتصبح مِلكًا للتجار الجدد وأقارب الرئيس، واحد منهم كان يعمل سكرتيرًا سابقًا في شركات والدي وكان قد اقترح عليه قبل شهرين من الانقلاب بأن يؤسس شركة لاستيراد المواد الأغذية المعلبة من أوروبا، وتخلى عن فكرته بعد الانقلاب مباشرة، فالشيوعيون لن يسمحوا بأي تعامل مع الرأسمالية هكذا برر الأمر، وأن الأكل المعلب لا يمكن أن يجد سوقًا، لكنه عاد ليصبح مصدرًا من مصادر معلومات النظام في سرقة ما نملك.

بعدها كنّا نفقد صيتًا؛ حتى وضعنا الاجتماعي، وصار والدي يعيش عزلته شيئًا فشيئًا، وربما كان ذلك سببًا في إحساس أمي بالفقدان والضياع والأسى، فقد كانت تعيش في حياة بذخ ورفاهية.

كان ما حدث بالنسبة لها أزمة كبيرة لم تقدر على المخارجة منها إلاّ بالانكفاء على الذات وتوهم الأمراض المستعصية التي سرعان ما أصبحت حقيقية وكان من الصعب لحاقها في الوقت المناسب.

فقد والدي الأصدقاء.. والجالية اليهودية لم تعد موجودة بالمعنى المباشر.. فأغلبهم كان قد استشعر الأمر مع أول أيام النميري ليسافر إلى إسرائيل ويقيم هناك نهائيًا أو يتخفى بأي شكل كان، إلا قلة عرفوا كيف يتفاهمون مع «ستالين»..

وقد خاب حدس والدي الذي ظن أن إسلامه سوف ينجيه، ليتلاشى الماضي الزاخر ويمضي الصيت الذي أوجده الجد ساعة كان يشار لعائلة باروخ على أنها الأكثر حظًا في الخرطوم، في أربعينات وخمسينات القرن الماضي.. وربما إلى تلك الفترة حملت بعض اللافتات في الصيدليات والمحلات التجارية بمدن السودان اسم باروخ، الذي اختفى يوم عمل أبي على استبدال كل ذلك بمجرد أن أصبح وريثًا على عرش أبيه الذي ضاعت قصته الأساسية في روايات الناس، فالجميع يحب أن يحكي قصة الوجهاء في البلد كيف أصبحوا وهكذا يريدون أن يتمثلوا خطاهم.

كان والـدي ذكيًـا في طمـس الهويـة اليهوديـة لحـين، لكـن مـع النميـري كل شـيء صـار مكشـوفًا علـى مـا أظـن ليـس لـي مـن تأكيـد قـوي مـع مضـي السـنوات. فتلـك العقـود الأربعـة التـي مضـت غيبـت الكثيـر مـن الوقائـع وبـات التاريـخ نفسـه لغـزًا غريبًـا.

●●●

باروخ

مضت الأيام الأولى لنا في الخرطوم في مهام الترتيب والأبجديات. كيف تؤسس منزلاً من الصفر، أن تختار الأثاث وقبلها تدهن الحوائط وتشرف بنفسك على تفاصيل الحديقة.

بالنسبة لياعيل لابد من مساحة خضراء في البيت هذه أمر مقدس لابد منه، ورثته عن أمها التي هي الأخرى تعشق الزهور واللون الأخضر وظلت تمارس لعبة التأمل وسط الطبيعة إلى أن ماتت في سن صغيرة قياسًا لما يفترض أن تعيشه النساء المحبات للجمال الإلهي الفطري.

انتقت ياعيل باقة من الأزهار لزراعتها في الحديقة الشرقية للبيت ورتبت الأواني الفخارية والأغراض، وبدت كأنها مهندس زراعي وطالما حلمت بأن تصبح كذلك ذات يوم.

أنا كنت هاويًا، مجرد رجل تعرف على الكثير من تفاصيل الزراعة من خلال الترجمة لا غير، لاسيما في الشهور الماضية وأنا أصحب دونالد الذي تعرفت عليه في بريطانيا قبل سنين، قبل أن تجمعنا الإسكندرية مرة أخرى.

كان دونالد يقول عني إنني أخطأت بدراسة الترجمة، وكان يجب أن أكون مهندسًا زراعيًا.

كنت أقول لنفسي، أنا مهندس زراعي وزوجتي هي الأخرى كذلك. ليس من مشكلة إذًا.

لست متخصصًا في المجال. لكن ياعيل تعلمت الكثير جدًا مني، كما تقول لي. وهذا لا يأخذ من حقها بل على العكس يثبت أنها امرأة ذكية جدًا. تعرف كيف تكسب المعارف بطريقة سهلة وسريعة.

كانت تقوم بعملها بكل محبة وإخلاص وهي تحسس من فينة لأخرى طفلها الكامن في أحشائها وتخاطبه أحيانًا دون أن تكون قد حددت له اسما معينًا أو أدركت أنه ذكر أم أنثى، وإن كانت تفضل أن تنجب ولدًا.

رغم ترتيب البيت ففي الغالب فإن حركتي ستكون في مناطق مختلفة من السودان، فبرنامجي ليس واضحًا إلى الآن، الواضح أن ياعيل سوف تبقى هنا، والمدينة عمومًا هادئة ليس فيها من ضجيج ولا شوارع كثيرة، تتميز بالنظافة والبساطة والشوارع المتقاطعة على شكل رقعة الشطرنج، وتشعرك وأنت تتجول فيها أنها أجمل من تصورك عنها في المرة الأولى، ربما هي مسرح للاكتشاف لكن بعض التصورات تتطلب وقتًا لكي نحدد دقتها، تعلمت ذلك من الحياة، ولم

أسرع لنقل انطباعي هذا للسيد دونالد عندما سألني ونحن نجلس سويًا في بار ليلي بوسط المدينة:

«كيف ترى الخرطوم سيد أدورنو؟»

كان يفضل أن يسميني أدورنو ولا أعرف سر هذا الاسم، وليس من عادتي أن أكثر الأسئلة.

ظللت صامتًا قليلاً قبل أن أجيب، وقد شعر بتحفظي..

قال لي:

«سأؤجل السؤال لبعد سنة كاملة.. ما رأيك؟ وقتها سيكون عندك تصورًا سليمًا»

أجبت:

«الأمر يتعلق بالانتباه لا أعلم تمامًا.. ليس لي من تأكيد»

ضحك، علم أن ذلك تحفظ مني قد يكون مبررًا وجزءًا من شخصيتي التي بدأ يتعرف عليها شيئًا فشيئًا، وهي الشخصية التي تفهمها ياعيل جيدًا منذ أول يوم تعرفنا فيها في المستشفى الأميري في لندن حيث كانت تعمل ممرضة هناك. كان لقاء كأنه صيغ في الغيب البعيد، في لحظة غامضة من الزمن.

●●●

سوسو

كأنـي بأبـي في ذلـك العـام الشـؤم ١٩٧٣م وهـو يـرى كيـف أن الحيـاة لا تركـن للثوابـت حيـث تظـل دائمًـا مطيـة المجهـول. الـدرس الغامـض الـذي لا يمكـن فهمـه أبـدًا.

أراه مـن علـى شـرفة الزمـن وهـو يفكـر في التغييـر والاضطـراب وعـدم الاسـتقرار.. مفـردات كلهـا تشـير إلـى المـوت الـذي أخـذه طريقـه إلـى أمـي.

بقـدر مـا كانـت تلـك الطاقـة سـلبية إلا أننـي كصبيـة كنـت قـادرة علـى الاحتمـال، وحيـث أرى مـن وراء الأفـق أن الحيـاة بهـا احتمـالات أخـرى ممكنـة وكان أبـي يقـول إننـي جبـارة مثـل جـدي.

يمشـي أبـي في صالـة البيـت الصغيـرة جيئـة وذهابًـا مثـل سـكارى شـارع الجمهوريـة التـي فقـدت رونقهـا.. لـم تعـد ثمـة جمهوريـة بـل حكومـة قابضـة تُشـرِّد الأبطـال الحقيقيـين وتصنـع أصنامًـا وهميـة..

كأنـه يفكـر بهـذا الشـكل، يمكننـي أن أتخيـل ذلـك وهـو يحـاول أن يـدرك مـا جـرى غيـر مصـدق لـه، فمـن أصعـب الأشـياء أن تـرى نفسـك تفقـد قوتـك وطاقتـك لتواجـه المجهـول.

كنت أسأل نفسي: لماذا لا يفكر أبي مثل كثيرين من اليهود في الذهاب لإسرائيل، سمعت من أمي أن هناك من ذهبوا وتم استقبالهم بكل حفاوة وأُعدّت لهم بيوت وعملوا في مهن محترمة، يمكن لأبي أن يعمل في مجال العلوم السياسية أو خبيرًا اقتصاديًا فلديه شهادة في هذا المجال.

أمي حاولت إقناعه ورحلت قبل أن يلبي لها طلبها، كانت تواجهه بالحقيقة التي عليه أن يفهمها:

«مهما ظننت أنك مسلم وسوداني ستظل يهوديًا لهذا علينا أن نذهب إلى أرضنا التي تنتظرنا..»

ومضت أمي بأن صعدت روحها إلى السماء دون أن أفهم تمامًا هل ماتت هي الأخرى مسلمة أم يهودية، بخلاف جدتي طبعًا. وقد كان فارق رحيلهما ربما سنوات وجيزة.. غير أني الآن أنظر للحدثين كأن فارقهما يوم واحد فالماضي أصبح كله محصورًا في كبسولة واحدة.

أصبح أبي لا شغل له، ينتظر وعدًا في المجهول، بعض من يظنهم أصدقاء يفصحون عن قدرتهم على استرجاع المال والعقارات وهذا مقابل أجر طبعًا يسمونه «كوميشن».. لا يشعرون بالحياء وهم يطالبون بذلك دون أن يتذكروا أن الصداقة شيء والسمسرة شيء آخر.

أبـي كان كالغريـق يتعلـق بالقشـة، يـرى الحـل في أي نجـم بعيـد يرسـل ضـوءًا قـد خبـأ قبـل ملايـين السـنين.

كنـت أشـعر بألمـه وأنـه قـد يفقـد عقلـه أو ينتحـر إن لـم يبـدو المخـرج، في حـين كان يسـتبعد تـل أبيـب أو أورشـليم ويقـول محدثًـا نفسـه بصـوت غاضـب:

«سـأظل سوداني ابن سوداني.. هذا وطني»

●●●

مـن خـلال الذاكـرة فـإن تلـك الأيـام المبكرة من صبـاي.. وطفولتي تبـدو لـي مليئـة بالألغـاز والعوالـم غيـر المفهومة لي رغـم ذكائي.

فالرؤيـة الثانيـة وبعـد سـنين طويلـة تكشـف لـك أنـك لا ولـن تفهـم كل الصـورة أبـدًا، حيـث تظـل الحيـاة غامضـة جـدًا ومفتوحـة لعشـرات التأويـلات التـي قـد لا تقـود الإنسـان إلـى حقيقـة معينـة.

أشـعر بصـداع يحاصـر رأسـي، وأننـي قـد اعتـذر عـن موعـد في الغـد مـع وفـد صينـي سـوف يصلـون للتعاقـد معنـا لتدريـب مجموعـة مـن الفتيـات الإسـرائيليات علـى السـيرك، طبعًـا الصـين لأنهـا المـكان الآثـر بالنسـبة لـي.. أنـا الـذي اختـرت أن يأتـي الوفـد مـن بكـين لأن هـذا جـزء مـن عالمـي وقصتـي وذكرياتـي.

مع اشتداد الصداع الذي يندر أن يأتيني، أرى أبي من جديد في مشيته وذهابه، وهو يحاول أن يتكلم بصوت مسموع للحيطان التي ترد عليه بالصدى، يخبرها أن تشرح له ما هو منطق الوجود، أي الناموس الذي يسير عليه هذا العالم!

لكن لا أحد يجيب، فيمضي - هو - وحده في محاولة خلق الإجابة، يستفيد من مهاراته الفلسفية التي نادرًا ما يستخدمها، بمحاولة أن يوظف خبراته كخريج سياسة له معرفة جيدة بالمنطق الصوري للعالم نقلاً عن أساتذته الإنجليز في لندن حيث ذهب هناك، في منحة أشرف عليها المفتش دونالد شخصيًا في شكل خدمة يسديها لجدي، وأكمل أربع سنوات في كلية «جولدسميث» بجامعة لندن التي اشتهرت بتخريج نوابع الإبداع والإدراك والثقافة.

يتوصل أبي إلى نتيجة مفادها أن هذه المدينة - يعني الخرطوم - هي نسيج بدأ يفقد رونقه، روعته الأولى، يقول ذلك بصوت عالٍ.

ترهل هذا النسيج هو الذي انعكس في الراهن القاسي عليه، فالسودان القديم الذي تركه الإنجليز بدا يغيب تمامًا، ونظام الألفة لم يعد هو.

هذا يعني لابد من تغيير قوانين اللعبة ولكن كيف؟

ثم يمضي في محاولة فهم قانون الحياة الجديدة، من على كرسيه الهزاز في الصالة الضيقة وهو ينفث دخان سيجارة بينسون اللندنية في هواء الخرطوم الحار في شهر مايو، دون أن يصل إلى نتيجة محددة في ذكرى عيد الثورة.

كانت موسيقى المارشات العسكرية ليست بعيدة عنّا، حيث يقيمون احتفالاً في القصر الجمهوري وحيث «ستالين المزيف» يوزع النياشين على التجار والمخمورين.

مع صوت الموسيقى يسترجع أبي العيد الثاني للثورة عندما بدأ الضيق مع بدء الأعيب السكرتير الهارب، ويحاول أن يلملم خيالاته ليواجه حقيقته، في حين كنت أراقبه كأنني أراه الآن أمامي بالضبط. وكأن الزمن لم يتقدم. فالصداع القوي كانت له قدرة هائلة على تكسير جدار الزمن وترحيله إلى عالم آخر ليبقى الإنسان في مواجهة الأمس البعيد.

أتذكر كل ذلك وهروب أبي إلى إسرائيل في نهاية المطاف، وكيف أنني عدت للخرطوم من الصين لافاجأ بما حدث ولم يكن ثمة من يتطوع ليخبرني بالقصة الكاملة.

سرعان ما أطوي هذه الشوارد القديمة لأعود إلى صورة أبي في صباي.. إلى ذلك اليوم الذي كان فيه قراري بأن أصبح لاعبة أكروبات، لا أرغب في هندسة المعمار ولا جنون البناء

والعقـارات، أحـلام أبـي الضليـل.. الـذي سـوف يصبـح في النهايـة عالمًـا في السياسـة وينسـى كل تاريخـه التجـاري الموروث، حيث يعـود الأصـل إلـى مصـدره، وهكـذا كان جـدي مترجمًـا يفهـم في اللغـات وبعـض المنطـق والفلسـفة وكان أبـي تاجـرًا ورجـل أعمـال ناجـح ثـم عـاد فيلسـوفًا سياسـيًا في تـل أبيـب ويافـا.

●●●

نعـم سـرعان مـا تنطـوي الأزمنـة تتداخـل مـع الصـداع العنيـف، لا شـيء اسـمه الزمـن يبقـى واضحًـا وجليّـا..

تدخـل صـورة الخرطـوم مـع مـدن صينيـة أحببتهـا مـع يافـا حيـث أنـا؛ وكـذا مـع مـدن أخـرى سـوف أزورهـا في سـنوات لاحقـة. ويسـتقر المشـهد وأنـا أنظـر بعيـدًا باتجـاه البحـر المتوسـط علـى الشـاطئ، إلـى سـفينة تبحـر أتخيـل أنهـا تحملنـي إلـى وطـن آخـر موعـود، كـم نحلـم بـأن نكـون ثـم نعجـز.. ثـم نكـون ثـم نعجـز..

هكـذا هـي صيـرورة الحيـاة، تلـك حكمـة والـدي ورثهـا عـن جـدي. وذلـك السـرّ الـذي كانـت جدتـي لأبـي قـد دفنتـه معهـا، أننـا خلقنـا لكـي نصبـح غيـر حقيقتنـا وعلينـا دائمـا أن نناضـل لكـي نغسـل نفوسـنا لنعثـر علـى الحقيقـة التـي تسـكننا، فالتمثيـل والمداهنـة ومحاولـة خـداع الـذات لـن يجـدي طويـلاً.

تقول ذلك وهي ترمي بنفسها على اللحاف، كنت صغيرة جدًا لا أفهم اللغة جيدًا غير أني أدرك ما الذي يُصوّره العالم حولي، مع صورة السفينة البعيدة أمامي.. وهي تُجرُّ باتجاه الشاطيء حيث يتضح أنها تحمل عددًا من المبحرين من اللاجئين الذين تم القبض عليهم في واحد من قوارب الموت، وهم يحاولون دخول إسرائيل فرارًا من أوطانهم التي لفظتهم.. أستطيع من بعيد أن أحدد ملامحهم أفارقة، سودانيين وأريتريين وأثيوبيين ومن بلدان أخرى في القرن الأفريقي.. دفعوا ثمن حياتهم وناضلوا لأجل أن يكتسبوا حريتهم في بلد آخر..

ثم يتلاشى المشهد من أمامي تتداخل صورة السفينة مع السفن التي كانت تمخر عباب المحيطات في عقود سلفت.

هل كان جدي حقًا يمتلك عشرات السفن البحرية؟ أم أن الأمر مجرد كذبة خرقاء كان علينا أن نصدقها، أعني أنا..

وأنا صغيرة أسمع أبي يتسلى بذكريات تاريخ العائلة.. ليس لي من تأكيد إن كان أبي يعيش حقيقته أم يخطرف بما لم يحدث أبدًا.. وهو يمضي في إطلاق اللعنات على النميري.. وعلى البؤس الذي بتنا فيه.. أتذكر وأنا صغيرة أنني مرة.. ربما مرات سافرت إلى بورتسودان بصحبتي أمي، كانت تحب هذه المدينة وتقول وهي تستقبل أمواج البحر.. من هنا جئنا ومن هنا نعود مرة أخرى..

كان لديها حلم السفر إلى تل أبيب الذي بدده أبي، ماتت أمي حسرة ثم راح من بعدها ليهاجر.. كأنه القاتل والقتيل.. كأني بأبي قاهرًا وملعونًا.

هل لي أن أكرهه أم أحبه اليوم؟ وهو في الثمانين من عمره يتوكأ على العصا ويعيش في تلك الفيلا ذات الطابقين ليس بعيدًا عن هذا الفندق وهو في انتظار ابنه المتوهم بنيامين من تلك العاهرة رائدة المراقص الليلية في باريس التي وجد فيها بديلاً عن أمي، أعرف أنه كان كائنًا شبِقًا في زمانه الأول، ولم أكن أظن أنه سوف يستبدل أمي بهذه الشقراء التي كانت تخونه.

كانت أمي ناظمًا له، معها عاش استقرارًا ونسي فحولته الأولى وأيام طيشه وشبابه ولكن ما أن ماتت فقد بدأ يعود لشخصيته المسروقة، كأنه لم يتغير. لدرجة أنني كنت أشك هل كان يحب أمي حقًا أم يجاملها فحسب؟!

●●●

أمام البحر تهتف أمي للفراغ، أرى في عينيها بعض من الدموع العاجزة عن الخروج والهتاف تعبيرًا عن أزمتها وإحساسها بالخوف من المجهول في هذا البلد الذي بات طاردًا.

ثم تحملني وهي تعيد النظر من مرة لأخرى سفينة وراء سفينة في الميناء وهي تكلم نفسها إن جدي كان له مثل هذه وهذه.. كأنه تاريخ آخر منتحل ليس لي به صلة.. حتى المصانع التي كان يحسبها أبي في مشيته وذهابه في الصالة كانت لي هي الأخرى أوهامًا وأضغاثًا لرجل يعيش على الأنين.

كان هذا المناخ قاتمًا لي وقاتلاً وكان علي أن أتحرر وكانت الأكروبات هي نافذتي، لا أرغب في مدرسة ولا أن أكمل تعليمي، ماذا سأفعل بهذا كله؟ إذا كانت طاقتي ملكي فعليّ أن أوظفها منذ اليوم.

ثم ترش المطر رشات، زخات على الحوش الصغير، يكون أبي قد ابتل وشعر بالبرد ليدخل إلى الغرفة، لا يمكنني التكهن بماذا كان يفكر في تلك الأيام البعيدة في الذاكرة.

ليس لي أن أعرف إن كان يشعل فكره النوم مع عاهرة من نساء شارع الجمهورية أم الزواج من جديد وهو الذي بات فقيرًا مُعدّمًا أم يفكر في الانتقام لحقه الضائع أم الهجرة إلى الأرض الموعودة، بعد أن بدأ يعيش قناعة مستترة مرات بذلك دون أن يفصح بها أو ربما أتخيل ذلك؛ لأنه أحيانًا يمضي في حلمه بأن يراني أبني له عشرات البنايات العالية في المنطقة المحيطة ببيتنا.. في حين سيبقى هذا البيت على حاله ليشكل ذكرى وعلامة على الكارثة..

كان يفكر بعقلية رجل السياسة، ولرجل السياسة فالماضي ضروري أحيانًا أو ربما جدًا، لكي تستلهم منه قصة تصنع منها المستقبل.

●●●

يطوّف خيالي بهذه الذكريات المتداخلة مع حاضري، وانا ابتعد عن الفندق مشية باتجاه بيت أبي، حيث يقيم وهو يقضي أغلب الوقت في التدوين على الحاسوب القديم.

يقول إنه يريد أن يكتب مذكراته قبل أن يرحل عن العالم.. حكايات بلد آخر ولعنة مستمرة لم يتخلص منها وعار حاول أن يدفنه طوال أربعين سنة في تل أبيب ويافا.. عار خرج فجأة مع صحفي فضحه مع أول يوم من القرن الجديد.. في اليوم الذي تلا تقديمه محاضرة بهذا الفندق عن العلاقات التركية الإسرائيلية، كان يحاول أن يوظف فيها واحدة من نظرياته في السياسة وكونها تخييلاً أكثر من كونها عملاً واقعيًا.

وأنا أسير على قدمي تحت رذاذ مطر يذكرني بخرطوم صباي، ويوم قراري بأن أصبح تلك المتمردة الصغيرة على جسدي، بطريقتي التي أعرفها أو اكتشفتها.. كانت خيالات الصبا تتداخل.. ما بين رحلتي مع أمي.. عناء أبي وكبريائه الذي انهزم.. والسفن التي لن تتوقف عن مطاردة مخيلتي.. وقواميس جدي..

وبعض من السواقي في شمال السودان حيث ذهبت في فترة مبكرة مع جدتي قبل رحيلها.. كيف لي أن استل ذلك الحدث، كان ذلك التذكر بالذات غريبًا في هذه اللحظة. فاللعنة على هذه الذاكرة كيف تعمل؟

هذا السؤال الذي يطارد أبي هذه الأيام وهو يتذكر ثم يحاول النسيان ثم يتذكر فيقاتل ظنونه ليبعد الوهم ثم تبقى الحقيقة كما يقول، لكني أظنه عاجزًا في محاولته القبض على الواقع والحقائق، إذ صعب عليه أن يفصل بين الأوهام والوقائع كما يبدو ذلك واضحًا مما سطره في الأيام الماضية وما سمح لي بالإطلاع عليه من بعض مذكراته وأوراقه التي يدونها قبل أجله المحتوم.

تتداخل صورة تلك السواقي على ضفاف النيل في مدينة مروي.. مع قصص لجدتي عن كوش القديمة وعلاقة ملوكها القدماء مع أورشليم المدينة التي أحبها الرب ثم لعنها.. تتناثر شظايا تلك الأيام لا تبقى سوى أصوات القواديس كأني أسمها الآن للتو.. وكأني أمام لوحة بانورامية هائلة كبيرة لا أعرف من رسمها، هل كان بيكاسو حاضرًا أم أنه سيزان المجنون أم سلفادور دالي.. أم أنه رسام لم يولد بعد يعيش في خيالي مع واحدة من تجاريبي القديمة مع الرسم التي بدأت في رحلة الصين ثم

اكتشفت أن الرسم يمكن أن يكون بطرق مختلفة كثيرة، وكان لي أن أرسم لوحتي بجسدي كلاعبة أكروبات.

ومع اندماجي في اللعبة.. كيمياء التداخل بين الحياة والموت. الجنون والأسى والعذابات والحنين لمجهول غامض.. أكون قد شارفت على وصول بيت أبي.. صورة السواقي لا تغادرني حيث بنوا سدًا في هذا المكان الآن.. وحيث يصعب عليّ أن أفهم موقعي من خارطة الزمن. وحيث هذه المدينة هنا، يافو، لي حنين خاص لها رغم كل شيء.. مثلها مثل بورتسودان ومروي والقضارف ورشاش المطر الخريفي وأصوات الدراويش في ليل أمدرمان.

●●●

محمد علي باروخ

طوال الليل كانت ثمة أضغاث تطاردني فتمنعني عن النوم بهدوء، ليست هذه الليلة إلا جحيمًا بنظري، لا تشبه ما عشته من صفاء في الشهور الماضية، منذ أن أصبحت وحيدًا في البيت الكبير ليس معي من أحد سوى ذكرياتي القديمة والكلب جيمي الذي يسهر إلى الفجر معي بجواري وأنا أجلس بجوار جهاز الكمبيوتر العتيق أسطر ما تبقى في ذاكرتي من تلك السنوات الغائصة في وحل الأمس.

لرجل في مثل سني، تجاوز الثمانين بقليل تبدو الكثير من الوقائع كأنها لم تحدث، حتى لو أنها حدثت حقيقة. ليس لي أحيانًا أن أفرز حدود المتخيل من الواقعي. لكنني على الأقل أؤمن بأن ما أسطره على الشاشة أمامي نابع من نفس صادقة تقول الاشياء التي تؤمن بها، وحقيقة الإيمان قد لا تشبه حقيقة الواقع والتاريخ، لكن من قال إن التاريخ حقيقي وواقعي ومنطقي.

في سيرتي ومعاركاتي في العالم ما يدل على هذا، لست محتاجًا من تأكيد أبدًا؛ من أي أحد، لكي اكتشف أن الإنسان يتعلق مرات بالوهم والأكاذيب حتى يصل إلى لحظة لا يفهم تمامًا أين هي المساحة الفاصلة بين ما حدث بصراحة، ما توقع أو توهم.

أفتح الدرج على اليمين في الطاولة الخشبية العتيقة التي تشبه ذاكرتي، ربما لأن هذه الطاولة بالضبط تتعلق بأول الأيام التي وصلت فيها إلى هنا، إلى البلد الموعود، تلك الأيام التي لن أنساها ربما إلى حين أحمل إلى قبري.

كنت قد اشتريها من سوق في وسط مدينة يافا، حيث ما زال وقتها بعض العرب يبيعون الأناتيك والأثاث المستهلك الذي يشترونه من يهود أثرياء عملوا على تغيير فرش بيوتهم وأثاثها بمناسبات مختلفة يعيشها كل منهم ويكتشف وراءها معنى لحياته.

لم أساوم البائع العربي كثيرًا، إذ دفعت له المبلغ بضع شيكلات، لا غير.

ثم ساومت عربيًا آخر عجوزًا بأن يحمل البضاعة على سيارته المتهالكة إلى بيت العائلة الذي كان أبي قد أعده لنا، إذ كثيرًا ما تردد على إسرائيل قبل أن يكون لنا أن نصلها لنعيش فيها نهائيًا، هل حدث ذلك حقًا أم أتخيله، إنها لعنة الذاكرة والخرف!

استخرج من الدرج صورة لي وأنا طفل في الخرطوم، ربما لم أتجاوز العاشرة من عمري، أقف مع مجموعة كبيرة من الأقارب وأصدقاء الوالد من الجالية اليهودية.

التقطت الصورة في النادي اليهودي، وكانت ذات يوم ليس بعيدًا عني رغم بعده؛ أتذكر أن الجميع كانوا يتحدثون عن زيارة الحاخام «موسى كاسترو» من الإسكندرية.

بالنسبة لي كطفل لم أكن مهتمًا وقتها بما سيقوله الرجل المهم، ولا الخطاب الذي ألقاه أمام الجالية من رجال ونساء، لكني كنت مهتمًا بدرجة كبيرة بأن أصافح الحاخام كما أوصتني جدتي كثيرًا وهي تخبرني أن البركة سوف تحل بي، ولابد لي أن لا أضيع هذه الفرصة التاريخية.

من حسن الحظ أن موسى طلب لسبب ما لا أعلمه وقتها أن يأتي الأطفال في الجزء الثاني من الحفل ليمنحهم البركات، ولم يكن الأمر يتطلب إذن مساومة من جدتي أو وصايا، وربما كانت تعلم بالأمر سلفًا، ليس لي من معرفة بذلك.

كنت طفلاً يانعًا ارتدي شورتًا أبيض وقميصًا أزرق مُشجّرًا وخلفي تماما تقف والدتي، ولا أعرف السبب الذي جعلهم يضعوني دون الكل في الوسط تمامًا، فموقعي كان في مركز الصورة، حيث هناك ثلاثة صفوف.

صف للواقفين من أصدقاء الوالد وبعض الأقارب.

وصف ثاني لشبه الواقفين.

وصف للجالسين على كراسي خشبية أنيقة يكاد خشبها يماثل خشب الطاولة التي أمامي، وهم من بعض رجالات النادي ومرافقي الحاخام.

ربما لهذه الإشارة المتعلقة بالخشب، كنت في ذلك اليوم البعيد قد اشتريت هذه الطاولة، قد يكون ذلك صحيحًا أم لا.

ما أحسه الآن أنه صحيح تمامًا أن ثمة ربط بين الطاولة التي أجلس وراءها والكراسي التي كانت في النادي اليهودي بالخرطوم، رغم أن خشب غابات الجنوب السوداني من المفترض أنه غير الخشب الذي يؤتي به من أوكرانيا عبر البحار إلى تل أبيب.

المهم أن الطفل الذي يقف في الصف الثاني وفي المركز هو أنا، أكاد أتلمس ملامحي لم تتغير كثيرًا رغم مرور سبعين سنة وأكثر. الابتسامة المبتسرة والعينين الهاربتين من قدر ما، وأذنين كبيرتين وأنف طويلة مسلوبة تشير إلى يهودي بامتياز، كان البعض يعيرني بها في طفولتي إذ يشيرون لي على أنني اليهودي صاحب الأنف.

أغلق الدرج بعد أن أكون قد وضعت الصورة في الألبوم الكبير، الذي يضم مئات الصور لي في مراحل متفاوتة من حياتي.

كنت دائمًا احتفظ لي بصور من مراحل مختلفة، وهو تقليد تعلمته من أبي وقبلها ربما من جدي رغم أنني لم أره كثيرًا فقد

مات وأنا في السابعة أو الثامنة ليس لي أن أتذكر بالتحديد، غير أن ملامحه لا تغيب عني.

كان رجلاً ممتلئ الجسد، قوي البنية، ليس طويلاً لكن إذا رأيته من بعيد يشعرك بأنه طويل، ربما لأنه كان يفضل أن ينتعل أحذية عالية كتلك التي يلبسها ضباط الجيش، برغم أن جدي لم يحدث أن قاتل في الجيوش أو كان له أقارب عسكريين.

لا أعلم قد يكون له حلم قديم في طفولته أن يكون عسكريًا ذات يوم وربما لم يتحقق ذلك الأمل الضائع، فكان قد عكس اتجاه الفكرة ليمنحني شرف أن أتمسك بهذا الحلم التائه، فمرات كان يداعبني وأتذكر ذلك كأنه يحدث الآن بأنني سوف أصبح ضابطًا كبيرًا، وسوف أقود حروبًا عظمى كتلك التي حدثت قبل مولودي بسنوات.

كان يعني الحرب العالمية الأولى، وكان يتذكرها ثم يغفل الكلام عنها إذ يشرع في بكاء عميق، لم أره يبكي مثله، كان قد فقد صديق له في تلك الحرب في إحدى بلدان أوروبا، يكتف بذلك دون أن يفضح بالتفاصيل أين حدث ذلك؟

ومن هو ذلك الصديق؟

وكيف حدث ما حدث؟

كان جدي رجلاً غامضًا لحد بعيد بقدر ما يمكن أن يكون واضحًا في أمور تتعلق بالرزانة والعلاقة مع الآخرين وتكيفه مع الحياة بالدقة والنظام.

ربما السبب المباشر لفهم عدم خوضه في التفاصيل - كأن يوضح هوية صديقه الميت في الحرب - أنه كان يرى أن الإنسان يجب أن يركز على الأمور المهمة وينسى ما سواها إذا كان ولابد أن تتكلم مع الناس.

جدي ظل غامضًا، حتى اليوم لا أعرف متى وصل للخرطوم، أبي يقول إنه من جاء أولاً، وجدي يصر على العكس!

أمي تقول بأن أبي هو الصحيح، وهو من أرسل لإحضار أبيه من لندن، مرات تقول الإسكندرية والهدف «حتى ينقذه من الوحشة».

●●●

سوسو

أشياء وأشياء جميعها قد مضى، كلها. لا شيء يبقى سوى الخيال في دماغ الإنسان دون أن يعرف حقيقة ما جرى بالضبط. عندما يكون تاريخ الذات ليس إلا صورة مرئية في الداخل، في الأعماق ويصعب عليك أن تشرح للناس ماذا يدور عندك بالضبط، من تكون وماذا ترغب. وهل كل شيء في واقعه قابل للإدراك والفهم والتفسير، بعض الناس يصرون على ذلك يريدون أن يجعلوا لكل العالم قانونًا واحدًا، نسقًا ثابتًا.

ليس لي أن أفسر ذلك ربما أبي يستطيع حتى لو أن الوهم صار عنده يتداخل مع الواقع في هذه السن المتأخرة.

كان ما زال يتمشى في الصالة يراقب أخر زخات المطر في الحوش الصغير، وكأنه يسمع أصوات سيارات تنهب الأزقة المحيطة على حين استحياء وغفلة، لم يكن الليل قد حل لتبدأ جواري الليل بشارع الجمهورية، في عملهن.

ثم يكلمني من ذلك الزمن البعيد، كأنه يتكلم في هذه اللحظة، كأنه يهجس بشكل مرعب من قرار ابنته الوحيدة التي يعتبرها الأمل الوحيد والنهائي الذي يتمسك به في هذا العالم بعد أن

أصبح وحيدًا بلا عائلة تقريبًا. فبقية الأقارب إن وجدوا كانوا سرًا أو جزءًا من ألغاز أبي وغموضه.

يحدثني أن المال والجاه قد ولى ويمكن أن يعود، لكن صلة الدم لا تموت أبدًا، إن ثمة شيء مدهش في حياة البشرية هو تلك الرابطة العجيبة التي أوجدتها الطبيعة، قال ذلك ولم يقل الله، ما أربكني، هل كان يمرن نفسه على إلحاد بعد كاد أن يكفر بكل شيء. ولم أحفل بالأمر كثيرًا. ركزت أسمع باقي كلامه لي.

نعم كان قراري بمفردي وكنت شجاعة بما يكفي وسط مجتمع لا يعترف كثيرا بالمرأة في اتخاذ القرار، إلى حد ما يمكن لأبي أن يعاندني أليس هو سوداني يفتخر بجواز سفره أخضر اللون، حتى لو أن ثمة تشويش يحصل الآن يبدو مرات في أضغاثه الليلية ساعة يبدأ في الكلام مع كائنات ليس لها وجود إلا في أحلامه التي أعجز أن أشاركه ما يدور بداخلها، كما أن ذاكرته خربة أو يدعي ذلك فهو يستيقظ ليخبرني أنه نسي كل شيء، لم يعد يتذكر ماذا كان يحلم.

لكن إذا جاز لي وأنا اقترب منه الآن في عزلته وهو ينتظر حضور بنيامين من أمريكا.. بنيامين الذي ليس له من وجود سوى في وهمه كعجوز، فسوف أشعر بشيء من القلق إزاء عدم الوعي تمامًا بطبيعة ما جرى. فمع الوقت وتضارب الأحداث في المخ

وتباعد الزمن يحدث ذلك الخلط العجيب، الذي يفقدنا القدرة على التحليل السليم للنوايا والوقائع..

لهذا كنت أُساءل نفسي هل كان السبب مجرد رغبتي بأن أكون أنا، هل هو تمرد لصبية تريد أن تعثر على ذاتها فحسب، أم أن ثمة عامل اقتصادي ومادي بالمعنى المباشر وراء ما حصل معي. لم أعثر على أية إجابة الآن. وحتى ربما لو عدت لتلك الأيام هل سأعثر على شيء لا أظن.

فحياة الإنسان وتصرفاته وهي تختلط مع مصائره وأقداره تبدو معقدة وعجيبة، ليس لنا أن نحدد بدقة الأسباب أو الدواعي فقط يمكننا أن نبتكرها الآن ولو بغير ما حدث في الواقع الأساسي.

هذه الطريقة التي أفكر بها ربما لا تشبهني، اعتقد أنها مستلة من كتب أبي ومقالاته وصيته كعالم سياسة متقاعد.

هل كنت مثلاً أرغب في أن أوجه له رسالة معناها المباشر أنك لم تعد صالحًا للمشورة كأب، وقد فقدت الاحترام والقدرة على اتخاذ القرار السديد، وهل ذلك يتعلق برؤية حالية أم أنه حاصل فعليًا وقتذاك.. لست أعلم تمامًا.. لكن أعلم أنني بت أعاني في مصاريف الدراسة، بل أن المعلمين في مدرسة كمبوني لم يعودوا يعاملونني بالطريقة نفسها من المودة والاهتمام، فالناس عبدة الدينار كما يقولون. قبل أقل من ثلاث سنوات لم يكن الأمر كذلك.. ربما

كان توقعهم بأن الحال سوف ينصلح، فقد كانت الشائعات تسري في أوصال المدينة المثلثة بأن انفراجًا يتخلق وراء الأفق..

كانوا يتحدثون عن مصالحات قادمة وأن النميري سوف يعيد بناء الأشياء ويرمم الشروخ، خاصة بعد الانقلاب الثاني في ٥ سبتمبر ١٩٧٥م للضابط حسن حسين، الذي انتهى بإعدام المقدم ومن معه بوادي الحمار في شمال البلاد.

ومضت الأيام ولم يحدث جديد وبعد أن كان أبي قد عاش أيام من الفرح المؤقت عاد لأزمته وضاق الحال أكثر من ذي قبل، وكنت أنا أول المتضررين. ثم كان موت أمي ليتعقد الوضع.

لا أظن أنني فقدت احترامي له، أبدًا لم يحدث ذلك. فقط كنت أفكر في مستقبلي بالطريقة التي أحبها، وقد كانت تربية جدتي سببًا في ذلك فرغم رحيلها المبكر إلا أنها غرست في أشياء لا تزال تؤثر في تفكيري إلى اليوم، أبرزها أنني يجب أن أكون أنانية بما يكفي لكي أُكوّن حياتي، فالآخرون بما فيهم أقرب الناس لن ينفعوني على المدى البعيد.

«إن الإنسان هو اكتشاف ذاته يا ابنتي»..

تقول ذلك في حين يتلاشى صوتها مع أصوات الزرازير والقماري وسط الحشائش ومزارع القصب الذي كان الرجال

يستعدون لحصاده وحمله على ظهور الحمير إلى الأسواق في المدن القريبة من مروي.

كان قد فكّر قليلاً مع نفسه قبل أن يرمي بعقب سيجارته على الأرض المبتلة بالماء، كان يتمتم أنه بالأمس القريب كان صاحب الرأي والكلمة الأخيرة، والآن ليس هناك من يسمع له، حتى ابنته الوحيدة.

ها هي تقول له، بالعبارة الجلية التي لا تحتاج لكثير تأويل «دعني أعيش حريتي.. أتركني وشأني يا أبي.. أريد أن أقرر مصيري في هذه الحياة».

سيحاول أن يخبرها عن المستقبل كيف للإنسان أن يستعد له بالشكل السديد.. الدراسة أهم.. المدرسة هي المستقبل.. الحياة تتطلب ذلك ولا ترجو ذلك..

ثم ترد عليه، أعني أرد عليه، أنا، بأن «كل هذه التصورات ليست ذات قيمة لأن الذي يفشل في إدارة حياته لا يمكن أن يصبح قدوة في إصدار الدروس والعبر».

●●●

اليوم أشعر بأسى كبير على تلك الكلمات المبكرة في صباي، إن كنت قد تلفظت بها حقًا. ربما شعوري بحال أبي وهو في هذه

السن المتقدمة وعجزه عن أن يكون ذلك الشخص الذي حلم أن يكون ذات يوم في تلك البلاد، أي السودان، هو ما يشعرني بالضيق الآن، أما عن قراري في تلك اللحظة القصية في تاريخي، فقد يكون سليمًا.

كانت مبرراته واهية بالنسبة لي، لا تقنعني ولا تحد طموحي البعيد، رغبتي في التحرر.. كلماته العاطفية لم تدغدغني أبدا، سمعته يقول لي «هذا ضد تاريخ العائلة وسمعتنا».. وكدت أن أفقد أعصابي هذه المرة أنا التي عرفت بالسكون والصبر الطويلين.. هل يحدثني عن سمعة بعد كل ما حدث؟ ما الذي بقي لنا؟ حتى موت أمي صار حديث المدينة التي برغم اتساعها لا تكتم خبرًا، لم يبق لهم إلا أن يحملوا لافتات في الشوارع أو يكتبوا على الحافلات العامة.. النهاية المخزية لآل باروخ.. عاد الاسم القديم يتردد في الألسن واتسعت الأقاويل عن حجم كارثتنا، وعن الأب الذي بدأ يفقد عقله وعن كيف أن الأصدقاء فروا منه وعن تذبذبه بين الإسلام ودينه القديم، وحكايات لا تنتهي يتكدس بها رأسي المُصدّع الآن بشدة.

قالوا إنه قتلها تخلص منها لأنها تزنُّ في أذنيه الكبيرتين.. بأن يهجر البلد وهو لا يرغب لأنه جبان.. لأنه يخشى أن يرمى بالرصاص في وادي الحمار.. لأنه إن قبض عليه وهو يحاول الهرب

فتلك كارثة.. ولكن ما الذي يجعلهم يعطونه هذه القيمة بعد أن جردوه من كل شيء.. كان هناك منطق بسيط وواحد لذلك كما أفهمه الآن، الناس وقسوتهم ورغبتهم في الانتقام إلى أبعد مدى.. ما أبشع الإنسان عندما يصبح أنانيًا وجبارًا وقاسيًا ومروعًا.. الهولوكوست الذي صار سمة عصر كامل.. يالهذا العذاب الذي يقتل الحميمة ويهدد العنصر البشري بالفناء.

أتذكر تلك القصص كما لو أنني أشك في خديعة ما، هل ماتت أمي حقًا بقانون الرب في فكرة الموت التي نعرفها أم أنه قتلها فعلاً؟!

سوف أصرخ فيه بمجرد أن أقف أمامه بعد قليل في غرفته إن كان مستيقظًا فهو في العادة ينام بعد الفجر بكثير هذه الأيام حيث يقضي الليل مع مدوناته التي يعيد فيها تصوير من يكون هو بالضبط. سأطالبه في محكمة سريعة وعاجلة بأن يفصح بالحقيقة، هل قتل أمي؟ هل ماتت بتدبير منه أم بقرار إلهي ليس له علاقة به؟ ولكن هل سيتذكر وهو الذي صار يخلط الأشياء ويصنع ما لا وجود له، هل سيقول لي مثلاً ان بنيامين هو الذي قتلها، هذا العجوز التائه، أم سيحاول أن يلبس التهمة لتلك العاهرة التي كانت تكره أمي وهي في قبرها.

ليكن ذلك ضد تاريخك وسمعتك السيئة في لندن ومن ثم عودتك وتكفيرك عن ذنوبك وغفران جدي عنك.. أو ليكن انضمامي للأكروبات عارًا يضاف للألم الذي تحسه، لا جديد إذًا.. مزيد من العار والألم.. ليكن كل ذلك.. لكنني لن أتنازل عن قراري.. أنا الصبية المجنونة إن شئت سمني ذلك.. هذا جسدي وأنا حرة.. وأحمد الله أنني لم أصبح كواحدة من عاهرتك في سنوات شبقك الذي تعجز عن استعادتها.. أتظن أنني غافلة لا أفهم ولا أدري ما يدور بحولي، لست صغيرة ولا غبية على أي حال.

ومضى ذلك اليوم طويلا برغم قصره. وفيما يقارب ساعات المساء، رأيته يدخل زجاجة عرق كبيرة الحجم، بعد أن قال إنه توقف عن الشراب إلى الأبد، خاصة بعد موت أمي وهو يجزم مرارًا أنه لن يعيش إلا في الوعي ليتذكرها في أبهى صورها حاضرة أمامه، هي لن تموت. كان يزخرف الكلمات ببهاء ويذرف دموعه وأنا أراقب ذلك ليس لي أن أفهم هوية ذلك الأب.

بين سكرته ويقظته وشروعه في أول النعاس، فهم أنني لست مستعدة لكي أكرر كثيرًا دفاعي عن فكرتي وأنه ليس لديه الاستعداد الكافي للرد على آخر كلماتي التي جاءت خاطفة وقاتلة ومخيفة.. أن فهم كيف أنه يعيش في أضغاث عالمه الخاص وقد

آن لـي أن أصنـع عالمـي أنـا وليـس عالمـه.. إذا كان أبـي فليـس لـه أن يتحكـم في مصيـري.. وكـدت أن أصـرخ فيـه.. ولـم أفعلهـا.. هـل خرجت مـن رحمك، لكننـي شـعرت بالخجـل أن هـذا أبـي مهمـا يكـن. وفهـم بهـدوء وهـو يرتخـي مثـل كائـن ينتمـي لعالـم قـديم إنـه لـم يبـق لـه مـن شـيء غيـر هـذه المسـاحة التـي يجلس فيهـا والتـي تسـمى بيتًـا أو منـزلاً، وربمـا غـدًا سـوف تنزعـه منـه الدولـة لنعيـش في الشـارع.. فهـل سـأتحول إلـى شـحاذة لكـي أعيشـه وأعيـش..

كانـت هـذه الأفـكار تطاردنـي حتـى لـو لـم يكـن لهـا مـن قـوة التحقـق. لكنـي كصبيـة كنـت أفكـر في احتمـالات واقعيـة في ظـل مـا حـدث أمامـي مـن تحـولات سـريعة وفي وقـت وجيـز في حياتنـا. وهـذا يعنـي بشـكل موجـز أن علـيّ أن أفكـر في مسـتقبلي بطريقتـي.. أنـا ناضجـة وواعيـة وراشـدة.. عقلـي أكبـر مـن سـني.. وخطواتـي لـن تتوقـف.. أنـا حفيـدة السـامري..

كان ينظـر باتجاهـي، لا يملـك أي إفـادة ولا قـول.. كان صامتًـا تمامًـا.. وربمـا شـعر بخـوف مضاعـف وأنـا أحدثـه عـن احتمـال مصـادرة بيتنـا.. كأننـي أسـمعه وقـد قـال بصـوت واضـح.. محمـد علـي باشـا الـذي كان. آل بـاروخ الأشـقياء.

●●●

الابن باروخ

لم أصبح ضابطًا كما كان جدي يأمل، وقد حقق حفيده ذلك، فابني بنيامين الآن يعمل كابتن طيران برتبة مقدم في الجيش الإسرائيلي، فيه أرى تمثلات جدي وما كان يحلم به بالنسبة لي.

هكذا فإن كثيرًا من الأحلام قد لا يحققها الإنسان مباشرة لينتظر أن يراها في آخرين من ذريته وربما لا يعيشها وتصبح واقعًا بعد موته مثلاً، غير أنه كما يخال لي يمكن للإنسان أن يرى كل شيء من وراء الغيب وستر الموت العجيبة.

في هذا المساء كان بنيامين غائبًا.. وهو غياب استمر لشهور جعلني أقضي الوقت وحدي، أعيش على هواجس الأمس وذكرياتي، ورغبتي القديمة في تسطير سيرتي وتجربة حياتي.

بعد أن سافر بنيامين في رحلة عمل طويلة إلى الولايات المتحدة كانت فرصة لي أن أبدأ هذا المشروع المؤجل، وكان أول ما قمت به أنني اشتريت جهاز كمبيوتر لابتوب صغير، ورغم أنني بدأت العمل عليه إلا أنني لم آلفه فقد تعودت على الجهاز القديم الموضوع على الطاولة، فأنا أحب أن أكتب وأفكر على لوح مفاتيح من النوع التقليدي الواسع ولابد أن يكون لونه أزرق.

لـي علاقـة غيـر مفهومـة مـع هـذا اللـون منـذ القميـص المشـجر الأزرق في يوم لقـاء الحاخـام. كذلـك تسـتهويني الشاشـة الكلاسـيكية المنبعجـة، لهـذا فـإن اللابتـوب لا يلبـي ذوقـي ولا هـواي في أن أدوّن خواطـري عـن تلـك السـنين المبكـرة مـن حياتـي إلـى يـوم وصلـت هنـا.

غالبًـا مـا تكـون البدايـات صعبـة، فالذاكـرة الإنسـانية تعمـل بشـكل معقـد، إنهـا تعمـل في حـين لا تريدهـا أن تعمـل ويحـدث العكـس بمجـرد أن تلـحّ عليهـا، حيـث تتوقـف تمامًـا بـل تتعطـل، أن تقـدم لـك أيـة إفـادة بخصـوص الماضـي.

إنـه الماضـي نفسـه يظـل غامضًـا وغريبًـا، ولرجـل مثلـي درّب نفسـه علـى القـراءة المتعمقـة في الفلسـفة والأديـان ودمـج ذلـك في علـم السياسـة لاعتقـاده بأنـه لا يمكـن فصـل هـذه العلـوم عـن بعضهـا، بـل يـكاد يكـون هـذا الشـخص الـذي هـو أنـا، قـد وصـل إلـى حقائقـه الذاتيـة عـن العالـم واللّه بعيـدًا عـن التصـورات المتوارثـة، فـإن الأمـر يبـدو مدهشـا ومربـكًا في الآن ذاتـه.

بـل أن بعـض أبحاثـي في مركـز «موشـي ديـان» حتـى لـو أنهـا ذات طابـع سياسـي إلا أنهـا كانـت تضـع لموضـوع الذاكـرة حيـزًا كبيـرًا، فثمـة ذاكـرة جمعيـة للشـعوب والأمم تنظـر إلـى التاريـخ وتعيـد بنـاءه بمـا يشـكل تاريخًـا جديـدًا ومسـتلفًا في أوقـات عديـدة ويصنـع السياسـات الجديـدة، بحيـث يكـون الإنسـان أمـام رؤيـة غيـر الحقيقـة

وغير المألوف، وربما بمعنى أوضح عكس ما حدث تمامًا في اللحظة الغامضة من الأمس. هي غامضة ومريبة كذلك، لأنه يصعب القبض عليها بعد أن انفلتت.

لهذا فإن الكتابة مثلاً عن الطفولة ليست حقيقة بقدر ما هي املاءات التأويل الشخصي للأشياء، هي تخيلات الكائن في حيز لحظة آنية تحاول أن تشكل الماضي، وربما تتخيل فيه ما لم يكن أساسًا.

علاقتي مع التدوين والكتابة عميقة بظني، لكنها تتخذ الطابع الأكاديمي والمذكرات التي تعالج التعليق على الأوضاع السياسية، حروب الشرق الأوسط المستمرة، منذ أكثر من أربعين سنة، وصراعات الدولة العبرية، بلدنا.. مع الفلسطينيين والعرب، والإرهاب وشؤون عديدة فيما يتعلق بفكر الهوية الإسرائيلية في تقاطعها مع عالم متغير، إلى آخر حروب الإرهاب ما بعد انهيار البرجين في نيويورك.

كل تلك الأمور تشغلني طبعًا وأحاضر فيها وأسجل وأدون بالطريقة نفسها التي تربط بين التاريخ والحقيقة إن وجدت والأسطورة التي أفضل أن اسميها الميثولوجيا، وهذا طبعا يكاد انقطع منذ ثلاث سنوات فقط.

فإلى ما بعد الخامسة والسبعين من عمري؛ تحديدًا في سن السابعة السبعين، ظللت أقدم محاضرات لطلبة العلوم السياسية بجامعة تل أبيب، وأعود مكتبي بمركز «موشي» حتى لو أنني أزوره بشكل متقطع من شهر لآخر. أما الآن فليس لي سوى بيتي المكون من طابقين قريبًا من البحر في المدينة التي أحببتها رغم أنفي، فمرات كثيرة لا يكون لنا إلا نطيع أقدارنا وفي النهاية يصبح هذا القدر أمرا محببًا لنا.

أقول ذلك لأنني لست متأكدًا من جدوى الحياة في حد ذاتها، وفعلنا نحن البشر وما هي قيمة الحب وجوهره في العالم. تلك الأمور التي يصعب عليّ أن أكون فاصلاً فيها بالشكل الدقيق والنهائي. فأنا أؤمن بآخر تجليات الفلسفة الغربية التي تقول إن الحقيقة غامضة ولا يمكن القبض عليها وأن الهوية هي شيء نكيّفه ونصنعه نحن ثم نتمسك به بقوة، فالإنسان يصنع واقعه وقدره وتاريخه، حتى لو أن ذلك القدر في حد ذاته ملتبس، لا نقدر على الحد الفاصل بين صناعته لنا وصناعتنا له.

نادرا ما أصعد إلى الطابق الثاني، حيث أبقى معظم الوقت في غرفتي بالطابق الأرضي والتي هي مكتب وغرفة في الآن ذاته.

على الركن وقريبًا من النافذة يوجد سريري بلحافه الذي لم أغيّره منذ عشر سنوات لأنني ببساطة ألفته، وأنا إنسان

عندما أتعود على شيء يصعب علي أن أنزعه عني، وقد لا يكون هذا التقدير دقيقا فيما يتعلق ببعض الأمور التي يكون مزاجي باتجاهها سيئًا وهذا عادي، فليس الإنسان مسألة منتظمة لابد من استثناءات دائمًا.

تعلمت ذلك من تجارب الحياة والزمن ورحلتي في الحياة التي انشغل بها كثيرًا هذه الأيام؛ ما يشعرني مرات بالخوف جدًا، تحديدًا تلك الأيام المبكرة التي شكّلت وجودي وفكري، فقد آن الوقت أن أتأملها وأصوغها وأقوم بمساءلتها، هذا الشعور الذي يجعلني مضطربًا بعض الأحيان ويضعني أمام سؤال، هل هذا يعني اقتراب نهايتي ودخول سرداب النهاية الغامضة؟! إذ يقال إن الإنسان في خريف عمره يكون له أن يعود إلى مصباته.

لست أدري فربما أعيش أطول من توقعاتي!!

أبي مات في سن الثمانين وهذا يخيفني طبعًا وجدي ليس لي من معلومة دقيقة عن عمره بالضبط، أظنه قد تجاوز المائة، وقد كان قويًا إلى آخر يوم في حياته كلما استرجعت صورته في ذهني وهو يودعنا.

فجأة يداهمني النعاس فاستسلم للنوم على سريري العتيق. أترك النافذة مفتوحة لكي أتنسم هواء الفجر البارد. في مثل هذا التوقيت يكون الشتاء رائعًا في بدايته، وتبدو الأضغاث الكثيرة تتلاشى مع تراخي الأعصاب وهدوء الجسد القديم.

لا أعد أرى وأنا أغطي نصف جسدي بثوب خفيف إلا صورتي هلامًا أمامي في الفراغ شبه المظلم، فهناك بصيص ضوء يتسرب من بناية بعيدة يدخل الغرفة دون أن يكشف جميع ملامحها النهارية.

أكون قد استسلمت وهربت إلى غابة النوم اللذيذ أحيانًا، وهناك أجلد سلوتي المفقودة في الواقع، حيث يكون عالم موازٍ رائع وقد لا يخلو من البشاعة في ليال منحوسة، غير أن هذه الليلة التي انتهت أعني هذا اليوم الذي سوف يبدأ فالصباح قد دنا، لا يبدو نحسًا بتقديري ربما تفاؤلي وأملي بأنه سيكون جميلاً ومشغولاً بتوقعات رائعة متعلقة بتلك الذكريات التي تشغل ذهني والتي أرغب في استرجاعها في مذكراتي.

●●●

سوسو

لم يستطع أن يقاوم قراري، إراداتي. هل كان يشعر بالعجز أم بالعاطفة الجامحة الأبوية التي تجعله يتنازل عن أنانيته لصالح أن أكون سعيدة بالطريقة التي اخترتها.. ففتاة في الخامسة عشرة من عمرها ليست صغيرة، يمكن لها أن تعرف ماذا تقرر، ربما بهذا القرار الذي لم يفصح عنه انتهى الأمر.

في اليوم التالي.. صباحًا.. كانت «سوسو» قد غادرت المنزل باكرًا إلى مقر فرقة الأكروبات السودانية بأمدرمان غربي النيل قريبًا من الشاطئ بعد أن عبرت النهر بالتاكسي الأصفر المتهالك، الذي استغلته في مشوارها لتنزل مباشرة قصاد البوابة المعنية، دون أن تتكلم مع السائق أو تودعه كما هي عادتها في الثرثرة عندما يكون لها أن تجد نفسها تخرج من العزلة المفروضة عليها في البيت، حتى لو أن بعض الناس سوف يفهمون فصاحتها من قبيل الأفكار السيئة التي ترد للأذهان وهي تركز على الجسد البضّ والمثير أكثر مما يتفوه به اللسان من حكم راقية.

أتأمل الماضي ككائن آخر غيري، أرى سوسو وقد انشغلت بفكرة واحدة في ذهنها، غير مبالية بأن السائق يريد أن يفتح معها أي موضوع للكلام وكان يتقصد جسدها الفوّار الذي يصعب

مقاومته لرجل لا يحترم نفسه. كانت تفكر فحسب في النتيجة التي سوف تخرج بها من الفرقة، هل سيكون ردهم إيجابيًا أم لا، وإن كانت تغلب الاحتمال الإيجابي لسبب قد يكون بُعده أيضًا متعلق بالجسد.. لديها المهارات الكافية.. والجمال الذي يمكن أن يثير الرجال المسؤولين، إنهم مرضى في الغالب.. لكنها سرعان ما ينقبض صدرها بحالة من الشك المفاجئ.. أن دخولها الفرقة قد يشترط أمورًا أخرى ذات علاقة بالسياسة والدين ومتلازمات معقدة، وهنا سوق يسقط كل شيء، لأن ذكر عائلة باروخ اليهودية سوف يخرب جرس القصيدة التي بدأت في كتابتها.

التجربة هي الدليل، منذ أن بذلت جهدًا في معرفة عنوان الدار، أين تقع بالضبط.. ولم يستهلك ذلك وقتًا طويلاً، أربع أيام.. كانت قد شاهدت الإعلان التلفزيوني لعرض الأكروبات الذي سيقام في ساحة الشهداء أو ساحة القصر كما سميت لاحقًا، ذلك بوسط المدينة يوم الجمعة بمناسبة أعياد الثورة، وكان بودها أن تذهب إلى هناك، وهذا يتطلب أن تمارس الهروب كالعادة لأن الوالد صار لها بالمرصاد. وفعلت وهي لا تبالي بالنتيجة، أو التوبيخ.. شاهدت العرض واندمجت معه.. وقابلت شابًا أخبرها بالعنوان ولم تفصح له أنها ترغب في أن تكون هناك أبدًا.. قررت أن تخوض التجربة من الصفر.

تركت التاكسي بعد أن دفعت له قيمة التوصيل، وكان الرجل ما زال مُسمّرًا يمارس تأمله لمؤخرة الصبية الراشدة، إنه كائن مثل الكثيرين يعيشون على هذا الوله الشاذ لكن لا عليّ، تقول لنفسها.

أقصد أقول لنفسي، ومن ثم أراه من بعيد أو أرمقه وقد تجمد إلى أن تحرك عسكري في الموقع باتجاهه يخبره بأن الوقوف هنا ممنوع لفترة طويلة لأن هذه المنطقة تصنف عسكرية باعتبارها قريبة من الإذاعة والتلفزيون وهذه المؤسسة سيادية الاستيلاء عليها يعني تهديد الأمن القومي بل انقلابًا على السلطة، مثلما حاول المقدم حسين أن يفعل فذهب إلى مواجهة الرصاص في صحراء العتاميز شمالي البلاد.

والعسكري هو الآخر لم يكن بمنأى عن اختلاس النظرات، محاولاً استغلال دوره كرجل له سلطة كما يتوهم رغم أنه لا يحمل سوى شريط صغير، ماذا لو أنه أصبح ضابط صف أو ضابطًا كبيرًا هل يا ترى سوف يفكر في انقلاب هو الآخر؟

أنسى هذه الأفكار وهي تداهمنني أمام البوابة، ابتعد عن الوجوه التي تلاحق جسدى وما يتحصلونه من متعة بالنظر إليه، ذلك الجسد الفائر والعينين الكبيرتين جدًا ومحاولة إبداء اللطف والثرثرة بأي موضوع تافه، طمعًا في إرواء الشبق بهذا النهر الدفاق.

دخلت المبنى وعبرت مكتب الاستقبال.. ومن بعيد ما زلت أرى سائق التاكسي وقد رفض الاستجابة السريعة لأوامر العسكري، كان في موقعه وقد أدمن التركيز في ردفي النهر المتموجين وهما في حالة مدّ وجذر لبحر أشقر الشعر طويل القامة، أتخيل ذلك من وراء الأزمنة، ثم أمضي في تتبع ما حدث معي.

موظف الاستقبال في دار الأكروبات السودانية هو الآخر كان مشغولاً بذات الشيء، فقد مارّس نفس مهمة سائق التاكسي في تتبع خارطة جسدي. ما هؤلاء الناس؟ لكني لن اهتم بهم. سأركز باتجاه هدفي. وما يهمني أن الرجل لم يمضي فيما درج عليه أمثاله من موظفي الاستقبال في المؤسسات الحكومية.. العنجهية وقلة الأدب وإدعاء الأهمية، ممنوع الدخول.. الجميع مشغولون.. وغيرها من العبارات التي يحفظها ويكررها وهو يتطاول على خلق الله الذين يرغبون في دخول المبنى ولأغراض مختلفة. منهم من يأتي لزيارة قريب أو صديق يعمل موظفًا هنا يتسامران ويشربان الشاي، ومنهم من جاء ليعرض مهاراته ورغباته في العمل بالأكروبات وإن كان هؤلاء قلة في الغالب كما سأعلم لاحقًا. ولا ننسى المتسولين الذين تقطعت بهم سبل الحياة في المثلث المجنون، المدن الثلاث أمدرمان والخرطوم ومدينة بحري. كان هناك واحد منهم يحاول الدخول ليعثر على المال أو ثمن الإفطار على الأكثر، وموظف الاستقبال يزجره بشدة والرجل متقدم السن وهذا لا

يعني شيئا أمام فقدان الأخلاق، لا أحد بات يحترم الكبير كما كان عهدهم في هذا البلد.. هكذا يقولون وربما كان الأمر مجرد كذبة.. فالناس تحاول أن تلصق الأشياء الجميلة بالماضي دائمًا.

يروي الشحاذ قصته بصوت مسموع كيف أنه جاء إلى الخرطوم ليعمل في مهنة حداد بعد أن خدعه أحد أقاربه ووجد نفسه يصبح متسولاً، لأن الأيام لا تركن على حال هكذا اختصر القصة. أسمعه وأقارن بينه وأبي وما وصلنا إليه رغم أننا لم نصبح متسولين بعد كما أن أبي لم يكن حدادًا، وأفكر أن ما يسمونه الناس بالرزق الحلال في هذه المدينة بات لعنة أو قصة تطول حكايتها، ليس من السهل أن توفر لقمة العيش إلا أن تعيش كأولئك العاهرات في شارع الجمهورية أو تصبح من مداهني النميري وربما لا يهتم بك، يروون أنه رجل غريب الأطوار يختار الناس وفق مزاجه الذي لا يمكن تصويره أو تقديره.

يقول الشحاذ لموظف الاستقبال صارخًا، إن فقدان الأمل هو الذي قاده إلى هنا بعد أن أنكر الحظ في العالم.. هذه العبارات تزن بأذني إلى اليوم، لأراه فيلسوفًا أكثر من كونه شحاذًا، واسترضيه بجنيهين أدسهما في يده، يقفز طربًا ثم ينزوي هاربًا في الشارع جوار النهر.

يرد موظف الاستقبال السلام الذي لم أحيّه به بعد، كان يتابع موقفي مع الشحاذ ومن زاوية ثانية كان يحاول أن يلفت انتباهي بأي شكل. كان أن أبدى اهتمامًا بي وهذه إشارة جيدة أنه لن يعطل دخولي للمبنى وهذا هو المهم لي. وتأملت في وجهه الكالح المتسمر في وجهي، يبدو كأنه غبي، وشعرت بالضيق والرغبة في أن أبصق ثلاث مرات على الأرض وبدلاً عن ذلك تغافلته ثم بصقت في حوش المبنى من الداخل، حيث أن غرفة الاستقبال كانت وحيدة تجلس بملاصقة السور الخارجي ومن ثم لابد من عبور مساحة مفتوحة للشمس إلى أن تدرك الجزء الداخلي من المبنى الذي كان طابعه تقليدي عبارة عن بيت قديم تمّ تحويله مقرًا لفرقة الأكروبات. ولاحقني الموظف ليبدأ في إطلاق اللعنات وإبداء سوء الأدب، وتوبيخي أنني لم أهتم به، وكاد أن يتلفظ بكلمات غير محمودة.. أظن ذلك حدث. ولم أعاين للوراء، تركته كالكلب ينبح ثم اتجهت إلى بوابة المبنى المترهل القديم إلى أن أدركت لافتة كتب عليها «مكتب المدير العام» فدخلت دون أن أطرق الباب.

هناك رجل يجلس على الكرسي وراء الطاولة، له شارب كثيف وغير مشذب وفي عينيه بقايا لون أحمر مشوب بالسواد يحكي إدمانه على السكر والسهر.. لي خبرة بهذه الوجوه تمامًا.. توقفت أمامه، كان كمن استيقظ من نومة استمرت لسنين طويلة، كأنه من ذرية أهل الكهف بلحيته غير الحليقة وبقايا النعاس فيه وقد

يكون لا يزال فيه بقايا حلم يقظة أو منام. فأمثال هؤلاء النوع من البشر لا فرق عندهم بين أحلام اليقظة وأحلامهم المنامية.

هذه الأفكار المتداخلة والسريعة شعرت بها وأنا أقف أمامه دون أن أكلمه ولم استعجل في إطلاق الحكم النهائي أو أفوض للأقدار بأن تقرر الكلمة الأخيرة فالصيغة الأولية التي تبدو أمامي ليست مشجعة، هذا الرجل لا يمكن أن يكون مديرًا للفرقة التي رأيت عرضها، وتذكرت أنه كان بمواجهتهم في الساحة يقدم توجيهاته غير أنه يبدو هناك شخصًا مختلفًا، هل حدث ذلك أم أتوهمه بحثًا عن صورة أخرى له تعجبني.. لست أدري!

قلت إن الأيام سوف تكشف لي كل شيء.. بل الدقائق المقبلة كفيلة بأن توضح صورة الرجل.. هل يكون من النوع الذي لا تصيده شباك النساء الجميلات؟

شعرت بالحرج وأنا أفكر بهذا الشكل.. ومن ثم تذكرت عبارة كان أبي يكررها مؤخرًا «الأيام القادمة كفيلة ببيان كلّ مخبوء»، وختمت أفكاري بهذا العبارة وأنا أتذكر عزّ أبي لأشعر بالامتعاض من الحياة، ومن ثم أعود لأحس طربًا يسكنني أنني مقبلة على تحقيق ذاتي وثمة آمال عريضة لا شك أمامي. هذه الدغدغة الساكنة التي تتحرك في مناطق مجهولة من صدري فتشعرني بالنشوة.

وأنا أعيد صورة والدي في عزه شعرت بشيء من الذنب في هذه اللحظة، وأنا أتذكر خروجي من البيت وهو غير راضٍ عن قراري، مجرد فكرتي بأن أنضم للأكروبات، ولم يعط مبررات كافية.. هل الأمر يتعلق بالجسد والأخلاق أم بوضعه الاجتماعي الذي بات مشكوكًا فيه، أم لأي حجة أخرى تتعلق بالتعليم وأحلامه لي بأن أبني له مستقبلاً فقده، كمهندسة معمارية. كان عاجزًا كما كان في سابقه عن تقديم منطق أو تفسير مناسب لما يتكلم به، فمرات ينعكس الحال الاقتصادي والمعاشي على طريقة تفكيرنا وحجتنا في السيطرة والهيمنة وجعل أفكارنا منطقية أمام الآخرين، أو قدرتنا على أن تكون مقنعين. لأن حقيقة العالم هي الوهم الذي يتشكل عبر صورة ذهنية قد لا تكون موجودة أساسًا ترسم وجهاء القوم على أنهم حكماء.

في تلك الدقيقة الغائبة في غمار التاريخ المنسي، لأي كائن آخر سواي.. شعرت بقلق يحاصرني أنني أهين ذلك الأب الذي كان يغدق عليّ في السنوات الأولى الكثير من النعمة، لم يترك ما أحبه من أشياء إلا ووفره لي، فلما أتمرد عليه الآن؟ هذا ليس أخلاقيًا. فكرت بذلك وتمنيت أن يكون رد الرجل السكران الذي أمامي سلبيًا، لأعود إلى البيت سريعًا وأقدم اعتذاري المُغلّف لوالدي، أنني أخطأت ولكن سبق السيف العذل، إذ كيف يرفضني مدير عام همه الرئيسي في الحياة الشراب، لهوه في الدنيا هو العرق ومراقبة الأجساد البضّة، النسوية فقد فرّك عينيه ليبدأ في

النهوض من سكرته التي لم تنته بعد، بقايا كوابيس الليل، وهو يمطُّ شفتيه بقوة، ثم يطلب من الصبية أمامه – مني – أن أجلس لأنه رأى فيها، أحلامه.

عرف برغبتي في أن أنضم للأكروبات، وسارع ليعلمني أن هذا أجمل حدث يعيشه منذ سنوات، والسبب أن طلبي أشعره منذ الوهلة الأولى بالسعادة الغامرة فمنذ سنوات كان يبحث عن واحدة لها جسد مثل جسدي يستطيع أن يباهي بها الصينيات والروسيات وغيرهن من بطلات السيرك الرشيقات والشقراوات.. تكلّم عن الإمكانيات المستترة في الجمهورية السودانية وأن رئيس الجمهورية يشجع الإبداع ويقف مع الموهوبين ولابد أن اهتمامًا كبيرًا سوف يحصل لي. وسرح بعيدًا يتصور مستقبلي؛ ولم يكن كاذبًا في خياله، فكثيرًا من توقعاته حدثت فعلاً فيما بعد.

هل كان إذًا الأمر يتعلق بمدير سكران وعاشق للجسد الأنثوي لا الذكوري كما تخوفت في البدء، لا.. ونعم.. لست متأكدة من حقيقة رجل سأحتاج إلى وقت طويل لكي أفهم كيف يفكر بالضبط، وهل هو حريص على تطوير الأكروبات كما يدعي أم أنه يتخذ مني سلمًا لغاية معينة؟ لابد أن الزمن سوف يفضح ذلك وقوله إنني ألبي له رغبات كانت غائبة منذ تأسيس هذه الفرقة قبل تسع سنوات، بدعم من الحكومة الصينية. استخدامه لكلمة رغبات أربكني قليلاً، وفهمت بعدها أنه استخدمها بمعنى آخر يقصد الأماني التي نسجها لتطوير الفرقة، إن كان صادقًا بالفعل.

تمثلت تلك الأماني في جسد بديع يجمع من كل جسد رآه في الماضي أكثر الصفات جاذبية، لخص الأمر بهذه المباشرة بعد أن تأملني جيدًا من أعلى لأسفل ومن أسفل إلى أعلى، مكررًا ذلك بعد أن طلب مني الوقوف وكان عليّ الامتثال لهذه المعاينة التي سوف تقرر مصيري، في طريق لا أعرف كيف سيكون شكله، لا أريد أن أكون عاهرة وأن أخلق جسدي بالطريقة التي أحلم بها، أحرره كلاعبة أكروبات حرة والآن تأتي هذه الرغبات لترسم طريقًا قد لا يكون كما أحلم، ولكن يجب أن أصبر قليلاً فالقرار العجول لن يخدم، فكرت بهذا الشكل.

رغبتي في الصبر لم تمنعني ودون سابق تفكير من أن أضرب بقبضة يدي على الطاولة ليستفيق الرجل من تكرار النظر من فوق لأعلى، دون توقف.

بالفعل أوقف حركة رأسه الزنبركية ثم نطق ليخرج الكلمات من فم صغير لا تكاد تعثر عليه في وجهه العريض والطويل، خاصة مع الشعر الكثيف، وهو يخاطبني بمزيج من هيبة رجل جاد وإنسان وراءه مقصد ما، لا يمكن التكهن به، قال لي:

«نعم ماذا تريدين، على أية حال نحن حاضرون؟»

كان تعبيره عن الامتثال والحضور غريبًا، طبعا فهمت كل هذه الأمور التي سوف أحكي عنها لاحقًا ومع الوقت.

●●●

محمد علي باروخ

ما بين الغفوة والنوم والأحلام.. تلك المساحات التي يصعب لمّها أو فصلها أرى نفسي.. شابًا في مقتبل العمر، قوي البنية كجدي. رائعًا ومثابرًا. وسيمًا يتقدم بهدوء في شارع من شوارع تلك المدينة الباقية في الذاكرة، الخرطوم في أيام طفولتي، وثمة هدوء في أول الصباح ليس من أحد يسير في الشوارع ربما لأن اليوم إجازة أو لأنني أتخيل ذلك، ومن ثم يصعد الزمن سريعًا جدًا لكي أرى نفسي من جديد وقد وصلت إلى إسرائيل ثم أعود مرة أخرى في رحلة إلى السودان عبر الصحراء مع زوجتي التي فقدتها قبل هجرتي إلى تل أبيب، وكانت لا تزال في زهرة العمر لم تدخل الثلاثين بعد.

هذه الرحلة عبر الصحراء والتي لم تحدث في الواقع، كنت آمل فيها ذات يوم. ككثير من الآمال التي يكون شأنها أن تتبعثر وكخوف أن يقف حاجز الزمن وربما أمور أجهلها دون أن أكتب ذكرياتي وما يحلق بذهني من طيور لن أرتاح أبدًا قبل أن أطلقها في الفراغ خارج هذا الدماغ المرهق.

فالأفكار مثل الطيور السجينة في القفص يكون علينا أن نحررها لكي ترتاح ونرتاح، لابد للإنسان في لحظة معينة من

عمره إن يتخلص من وعثاء السفر وكآبة بعض الذكريات وعليه كذلك أن يكتشف الأشياء الجميلة التي شكّلت جزءًا من ماضيه، فالحياة لن تصبح لها معنى إلا إذا عرفنا كيف نصوغ منها قصة تحكى أو تروي لأجيال قادمة.

هذا الشعور كان يطاردني بقوة، ولهذا اكتشف أنني ربما لم أنمْ كما ينبغي ورغم ذلك فقد كان هاجس التدوين يلحّ عليّ بأن أنهض من جديد رغم تعبي لأبدأ في قراءة ما يغوص في باطني من عوالم مفقودة عن تلك الرحلات البعيدة.

في تلك الرحلة الصحراوية التي انتهت قبل قليل، والتي لا أعرف إن كانت ستشكل جزءًا من كتابي إن رأى النور أم لا، «مذكرات يهودي تائه».. أقولها وأضحك مع نفسي؛ لمعرفتي أن حقيقتي كمتدين مشكوك فيها، إذ أربط هويتي بكوني يهودي الدين مع علمي بأن اليهودية باتت هوية وليست دينًا في أعراف السياسة الإسرائيلية وأنا أحد الذين نظروا لذلك عبر مقالاتي وكتبي.

في تلك الرحلة كانت زوجتي قد ظهرت من جديد برغم موتها منذ ذلك اليوم الذي بكيتها فيها بحرقة وأنا أودعها المقبرة القريبة من البيت القديم في العاصمة السودانية، والتي دفن فيها أبي وكذلك تمت مواراة عظام جدي وجدتي قبل أن يتم إحضارهم جميعًا من الخرطوم مع مجموعة من رفات العديد

من أفراد الجالية اليهودية الذين قضوا نحبهم هناك في النصف الأول من القرن العشرين إلى الربع الأخير منه، وكانت تلك قصة بطلها ليس شخصي إنما عدد من الأصدقاء الذين ولدوا مثلي في السودان وعاشوا طفولتهم وبعض من شبابهم هناك.. أعني بطولة أن تجمع عظام الموتى لتحملها سرًا إلى بلد آخر.

رأيتها زوجتي بجمالها الباذخ وطولها الفارع وقدرتها على إغوائي برغم التعب فقد كانت امرأة مهيبة يندر أن يتكرر رونقها، أدخل من عملي مرهقًا ليس من احتمال لذاتي بفعل أي شيء يتعلق بالجنس ورغم ذلك أفعلها، قبل أن أنام لساعة على الأقل وبعدها أنهض مجددًا لتناول الغداء ومن ثم التمشي قليلاً في شارع الجمهورية إلى النيل، فالعودة إلى البيت والجلوس مع ابنتنا الصغيرة سوسو التي ولدت للتوّ.

لاحقًا هنا في يافا يتجدد المشهد بطريقة أخرى مع عودتي من جوار البحر للجلوس لساعة مع بنيامين الذي يصرّ على عدم مراجعة دروسه المدرسية بظن أنه أذكى من المدرسين، وأن هدفه في الحياة سوف يضيع وسط عشرات الحصص التي يراها كلامًا فراغا لا طائل وراءه.

يبدو أنه كان يستمع لحواراتي مع أمه «تسيبي» التي كانت تصر هي الأخرى، أنني أضيع الولد بأن أجلس لسماع إفاداته

المهرطقة في حين أن الوقت يمضي دون أن يكون قد قام بأي واجب مدرسي.

مرات يذهب معي بنيامين إلى البحر، ونجلس سويًّا على الرمل بالشاطئ، ثم يسألني فجأة سؤالاً خارج سياق اللحظة، لا أعرف كيف يشتغل دماغ هذا الصبي ومن أين يأتي بالأسئلة.

«أبي.. هل تحمل أي ذكريات جميلة عن تلك السنوات الأولى من طفولتك ساعة كنت في مثل عمري؟»

أطرق قليلاً مفكرًا مع نفسي، قبل أن أجيب عليه، أو أخبره أن سؤاله يتطلب بعض الوقت للإجابة عليه، وهو لا ينتظر، يسرع ليفهمني أن جيله أذكي منا بكثير، كأن العقل البشري يتطور بشكل أسرع في هذا الزمن الجديد، يخبرني:

«بابا.. أتعرف أن صديقك إسرائيل يقول إنه يبغض تلك المدينة القائمة بين النهرين»

لا يُسمي المدينة ولا يتبادر في ذهني بداية أنه يقصدها.

ثم يكمل بعد أن يكون قد أرسلني إلى مساحات بعيدة في خيالي وواقع كان ذات يوم:

«إسرائيل يقول إن الخرطوم مدينة ملعونة»

ثم يضحك الصبي بطريقة وقحة. كأنه يفتقد للذوق.

ضحكة صبي في الثانية عشرة من عمره تبدو غير لائقة أمام أبيه، لكنني أتحملها لأنني أحبه ابني الوحيد.. ثم أشير إليه بأن نعود غافلين إلى البيت، وقبلها يكلمني بفكرة جديدة:

«أريد أن أزور الخرطوم يا أبي.. يمتلكني شعور أنني سوف اكتشف أشياء تخفيها عني»

ويضحك الصبي المحتال مجدداً. كم اشتاق إليه الآن في وحدتي.. أربعة شهور مضت على غيابه في الكورس الذي ذهب إليه في دالاس.. أتذكره برغم أنني قد أنساه وانشغل مع حالي في هذه السن العصية على الفهم، عندما يبدأ الإنسان يفكر ويعمل بطريقة مختلفة عن باقي زمنه الذي مضى، وساعة يبدأ في تخيل رحلات قد لا تكون قد حدثت من الأساس وهو يلملم أطراف ذكرياته المتناثرة مثل جثة متفجرة يكون عليه أن يثبت صلاحها وأنها قادرة على القيام مرة أخرى والمشي.

هذه هي المشاعر التي أعيشها الآن وهي تمتزج تارة بالأسى وأحيانا بالفرح، إذ تتداخل هذه الحالات المتباعدة بحيث لا يقدر الإنسان على التحديد أين هو بالضبط!

●●●

عمر الأزرق

مـن النـادر أن يتفـوّه المديـر العـام لفرقـة الأكروبـات السـودانية بهـذه العبـارة «علـى أيـة حـال نحـن حاضـرون»، فسـمعته تقـول إنـه رجـل صعـب المـراس، قـوي وشـديد لا يركـن لأحـد. ليـس لـه مـن فكـرة في رأسـه سـوى نفسـه وبعـض مـن تهاويمـه الذاتيـة التـي لا يقبـض عليهـا أي شـخص آخـر سـواه. وإذا حـدث أن قـال مثـل هـذا الـكلام بمـا يعنـي الامتثـال والرغبـة في تنفيـذ الشـيء، فهـو في الغالـب غيـر صـادق.. بـل إن ذلـك مؤكـد، فهـو لا يـوفي وعـدًا. الجميـع عرفـوه كذلـك ولسـنوات.

الآن ومـع سوسـن.. الـذي سـوف يطلـق عليهـا لقـب سوسـو، سـيختلف الوضـع.. فهـو يعنـي بالضبـط مـا يقولـه إنـه لا يُسـوِّف ولا يكذب ولا يداهـن فتـاة جميلـة.. حاضـر تعنـي حاضـر وقابـل للتنفيـذ علـى الفـور.. يـا لهـذا السـحر الـذي يخلـق البـراءة لأنـاس يفتقدونهـا.. لـكأن الكراسـي والحوائـط والنوافـذ في المبنـى القـديم تتكلـم بهـذا الشـكل ولـكأن الجميـع هنـا ممـن ألفـوا المـكان لسـنوات يسـمعون هـذه اللغـة الجديـدة.

حقيقة الرجل أنه معروف وغير معروف لمن هم حوله.

مـرات تـرى النـاس الأشـياء الظاهـرة أو العلامـات الخارجيـة لإنسـان معين وتظن أنها تفهم هـذا الشـخص بدرجـة كافيـة وتدّعـي قدرتهـا علـى التكيـف معـه والحكـم علـى تصرفاتـه مـن دواعيهـا وأسـبابها، والواقـع غيـر ذلـك هـم يجهلـون ذلـك الإنسـان تمامًـا؛ والمديـر العـام نمـوذج لهـذه الشـخصية التـي تظـل مجهولـة لمـن حولهـا، كل يـرى زاويـة منـه وأغلـب هـذه الزوايـا لا تفسـر صورتـه الكليـة، أمـا سوسـن وبتوظيـف جـزء بسـيط مـن ذكائهـا فقـد بـدأت في اكتشـاف العمـق الثانـي للرجـل، ذلـك الفضـاء المجهـول، وربمـا ثمـة طاقـة خفيـة تفجـرت في كوامنـه ليبـدو نقيًّـا مثـل طفـل، إنـه الجمـال والشـبق الإنسـاني وأسـرار أخـرى مجهولـة تفعـل في الكائـن البشـري العجائـب ليخـرج إنسـانًا آخـر دون أن يـدري، يكتشـف أنـه كان يعيـش في قمقـم يرغـب في الانفجـار والخـروج، هـل هـو الحـب مـن أول نظـرة، كمـا درج القـول. مـن العبـث تبسـيط الأمـر بهـذه الإخـلال.

إذا حـدث أن مديـر الأكروبـات السـودانية قـد أحـب مـن أول نظـرة مـن قبـل فربمـا كان كاذبًـا، ولكـن في هـذه المـرة هـل هـو كاذب؟ هـل يمكـن أن يقنـع نفسـه بهـذا الحـب الـذي انهمـر علـى قلبـه بـلا حسـبان؟ ليـس مـن تأكيـد مطلـق، فهـذه الأمـور لا يمكـن إدراكهـا هكـذا إذ لابـد مـن تمحيـص واختبـار ولابـد للزمـن أن يلعـب لعبتـه المسـلية والقـذرة أحيانًـا حتـى يكـون الاكتشـاف أو القـرار النهائـي.

مع سوسن تبدو ثمة سماوات أخرى قد يلامسها حقًا، ويبدو الوهم حقيقة. لكن سيؤجل مع نفسه كل هذه الاستفهامات، وسوف يبدأ في الانتباه لطاقة هذه الصبية اليانعة، وردة رائعة تفوح بشذاها في هذا المبنى القديم أمام هذا الرجل الصحراوي القاحل.

خلال سنوات عمله مع الفرقة منذ نشأتها تقريبًا، كان قد اكتسب مهارات عالية الدقة في تحليل النفوس والأرواح، وحيث فهم وآمن بأن الروح والنفس والجسد هي أشياء متكاملة لا تنفصل أبدًا، بل هي شيء واحد في النهاية يُسمى إنسانًا، فالإنسان الكامل أو العجيب كما يسميه هو الذي تتلاقى فيه هذه الثلاثة (الروح/النفس/الجسد) بقوة وبدقة وبألفة.. ليكون فريدًا في نوعه لا يتكرر. ليس الأمر متعلق بالجمال الشكلي فحسب، لا المظهر وحده يعطي حقيقة الكائن ولا الجوهر، لابد من أكثر من فكرة وتقاطع لكي يكتمل الإنسان.

وإذ يصعب عليه أن يُلخّص هذه الكيمياء العجيبة التي يرى بها هذه الأمور، فقد استمر مُحدِّقًا في وجه هذه الفتاة، كأنه يريد ان يخترق من خلال تأمله جسدها إلى عوالم أخرى لا يبصرها بقوة العين إنما بحاسة أخرى، نوع من التهويمات الصوفية العجيبة، ذلك القلق الذي يسكنه الإنسان لكي يدرك ما وراء المرئي والمحسوس.

في الصين وفي سنوات شبابه المبكرة قبل عشرين سنة وأكثر، عندما سافر إلى هناك لأول مرة وقبل أن تكون هذه الفرقة في حيز الوجود، كان كمن يجرب الحرث في البحر، لا أحد سوف يهتم بهذا المجال الغريب، من يذهب إلى أقصى الشرق ليدرس خداع الناس بصريًا بجسده، وقتذاك كان ما زال يمتلك جسدًا نادرًا وقدرات هائلة على التلاعب بهذا الجسد، تراخى البدن وتوجع وضاعت القدرات مع الزمن، لكن الأفكار بقيت نشطة في الدماغ؛ بخصوص أشياء لا حصر لها، وبالأحرى هي فلسفاته عن العالم وعن حقائق الإنسان من خلال المهنة التي أحبها حتى لو أن السنوات السابقة جعلته عصبيًا بعض الشيء، أو خصمت من هيئته الأولى شكلاً ومضمونًا.

طوّر في فترة مبكرة خبرات خارقة، وقدرات نادرة.. استطاع أن يكسب جمهورًا عريضًا وهو يؤدي عروضه في أماكن عامة، إلى أن تحقق له حلمه بأن تؤسس هذه الفرقة لكي يكون مسؤولاً عنها، أن يشرع في بناء أول كيان وطني في الأكروبات والبالية والسيرك.. اليوم يسترجع كل ذلك ليشعر بفرحة غامرة أن أمامه فتاة تشعره بأن فكرة الفرقة وقرار وجودها كان صائبًا، ففي هذا اليوم بالتحديد تولد نجمة. لديه الإحساس الداخلي الكافي الذي يفهم به كل ما حوله ويراه بدقة في مهنته التي يعرف أسرارها جيدًا. ربما يقال إنه أحب هذه الصبية اليهودية ابنة باروخ..

فقد عرف من خلال وقت وجيز كل المعلومات بخصوصها ولم تكن سوسو لتقدر على أن تدسّ ذلك. وهي كذلك تفتخر بتاريخ العائلة حتى لو أنها باتت نسيًا منسيًا على صعيد كونها أصبحت فقيرة، معدمة، لكن دائمًا الناس يعيشون بين أملين. كان وممكن. ولهذا فهناك من يتوقع أن يعود النجم إلى سمائه وأن تفك أموال وعقارات «محمد علي باشا» المحظورة.

لم يكن مدير الفرقة يفكر في هكذا أمور؛ فهو لا يهتم بالمال كثيرًا.. ولا يهتم بالعرقيات والديانات، سواء كنت تعبد الله أم الشمس، كان مشغولاً فقط بعالم الأكروبات وجنونها، حتى لو أن سكراته الطويلة باتت تبعده مرات عن هذا العشق، ربما لمرارات الحياة التي تتناسل بلا تتوقف وبعض من مأساة الذات في عنفوان الوجود وما يصبه من آفات لا تخلص. ليس من وقت لروايتها على هذه الصبية، ربما في وقت آخر ساعة يكون لها أن تكبر وتصبح نجمة بحق. يفكر الرجل بهذا المضمون السريع ثم يعيد نظراته نحوها من أعلى لأسفل ويعيد الكرة.

في الصين وفي تلك الرحلة الباقية في الدماغ كأنها كانت قبل ثوانٍ معدودات، كان قد تلقى دروسًا في الألعاب البهلوانية، وفي أول درس فهم من المدرس الصيني في قاعة الدرس «أن لاعب الأكروبات الناجح هو الذي يحرر روحه أولاً لأن الجسد لا يتحرر

ولا يكون طليقًا وخفيفًا إلا بمولد الروح الجديدة للكائن البشري»؛ هذه المعادلة التي تثبتها سوسن أمامه.

يعيد كل هذه الأحداث في ذهنه الوثاب، ويكون أثر السُكر قد تلاشى مؤقتًا، قبل أن يسمع ما الذي سوف تقوله هذه الصبية الفاتنة، التي تقف أمامه، وهو يخاطبها بصوت مسموع كمن يخاطب نفسه: «إنها.. إنك إحدى بنات الحور السودانيات». ولم ينتظر أن يسمع الكثير منها، فقبل أن تحدثه سوسو عن رغبتها في الانضمام للفرقة، كان قد فهم كل شيء من خلال الإيماءات التي صدرت عنها، وهي علامات مفهومة له، لا تحتاج إلى كثير تفكير ولا عمق إدراك، فليس أمام رجل تعلق قلبه بالأكروبات لما يقارب ربع قرن، أن ينتظر مزيدًا من الوقت لكي يفهم.

أشار لها بأن تجلس.. أخيرًا جلست فقد انتهى الوقوف الطويل والتأمل المستمر، والاستغراق بين الحب والشبق والجنون.. تلك التداخلات التي يصعب فرزها في نفسه. ما الذي يفكر فيه بالضبط، وهو أمام ابنته؟ فلو كان قد تزوج منذ تلك الأيام وهو شاب لكان اليوم قد أنجب بنتًا أكبر منها بكثير جدًا.. لا.. يغالط حواسه وضميره حتى لا يشعر بالشيخوخة ثم يعود ليكلم روحه بأن الحياة في خفة هذه الروح.

تجلس.. يكون قد قام من وراء الطاولة ومن حافظة ماء صغيرة زرقاء اللون.. يصبّ لها الماء البارد في كوب من الزجاج الشفاف.. وقبل أن يناولها إياه.. يرفعه إلى أعلى قائلا:

«هل بإمكانك رؤية ما وراء الكوب من خلال الزجاج والماء؟»

فهمت سوسن المقصود، فهي تؤمن بذكائها وكونها لماحة كما يشيرون بذلك في مدرسة كمبوني أو كما درجت عائلة باروخ على وصفها.

ردت بسرعة على المعلم مدير الفرقة، فقد بات الرجل الآن معلمًا بعد أن كان مجرد سكران غير مشذب الشارب، قالت:

«نعم.. شفافية الماء والزجاج تسمح بالرؤية.. هذا أمر لا خلاف عليه.. إنك تعني أنني يجب أن يكون جسدي مثل الزجاج وروحي كالماء داخله لكي اجتاز الاختبار.. لكي أكون قادرة على...»

يقاطعها قائلا:

«إذن أنت قد جئت لكي تنضمي للفرقة كما تصورت..»

ثم يبتسم ابتسامة باهتة هذه المرة، لا تشبه تاريخ جسده ولا روحه، يبدو أن الأرواح تخرب أحيانًا لتفقد أثرها الباهي على الوجه وطلّتها في الخارج.

تومئ برأسها دليل الاتفاق على ما قال، ثم تكمل قائلة:

«ولكن ماذا لو أن الزجاج قد انكسر والماء قد اندلق أيها السيد؟!»

ورغم أن سوسن ذكرت العبارات الأخيرة بظن أنها فهمت المغزى من مثال المعلم فأرادت أن تبهره بأفكارها، إلا أنها كانت تشك أنه ربما يقصد مسألة أخرى لم ترد لذهنها. ذلك أن المعرفة عتبات. وبالفعل اكتشفت بعد ثوانٍ أنها كانت قد أخطأت بالرد السريع وظن الذكاء الكبير، كان عليها أن تحترم خبرة الرجل، وقبل أن يتكلم ليوضح أمرًا ما، كانت قد استدركت بسرعة وقالت:

«لا بأس أن يشبه الزجاج الجسد وأن تشبه الماء الروح.. بشرط أن يكون الجسد نقيًا وشفافًا والروح غير عكرة.. لولا ذلك لما أمكن رؤية الأشياء الواقعة على الجانب الآخر»

أوضح لها:

«تقصدين قدرة الآخرين على الرؤية.. الإحساس بمكنونات روحك»

لا يحب الرجل مثل هذه الأمثال المباشرة. لم يكن يريد أن يخوض في تعريف شكلي للأمر، لكنه انتهى إلى ذلك. كان يريد أن يغوص في معانٍ متعلقة بأن الرؤية هي اكتشاف الآخر أيضًا مثلما

هـي متعلقـة بالـذات، فنقـاء المـاء أو صفـاء الزجـاج يتعلـق بالـذات، فيمـا الرؤيـة هـي للمشـاهد الخارجـي.. للإنسـان وهـو يطـل مـن خـلال ذلـك التكويـن ليـرى عالمًـا آخـرًا هـو القـدرات الخارقـة والسـحر الحقيقـي الـذي يعكسـه عالـم الأكروبـات والباليـه. الرقـص النـاري كالـذي يرقصـه أبطـال باليـه نيـران الأناضـول أو بحيـرة البجـع.. في تلـك الأوبراليـات العالميـة.. كان يريـد أن يمضـي ليشـرح ذلـك، غيـر أنـه شـعر بـأن الوقـت لا يـزال مبكـرًا علـى هـذه الصبيـة، عليهـا أولاً أن تجتـاز الاختبـارات الأوليـة لكـي تمضـي إلـى التـدرب ومـا وراء ذلـك فمـا يتعلـق بنظريـة «الكـوب الشـفاف» فذلـك لـن يكـون الـدرس الثانـي ولا الثالـث في رحلـة طويلـة. لأنـه هـو نفسـه مـن طـوّر هـذه النظريـة بعـد سـنين مـن التجـارب والتمارين العميقـة في المجـال.

ثم ليختصر فكرته قال لها وهو يضحك:

«إذا توفـرت اليـد العظيمـة التـي تمسـك بالكـوب فسـوف تتغيـر أمـور كثيـرة»

لـم تفهـم مدلـول كلامـه علـى أن نقطـة ينطبـق بالضبـط، وسـمعته يعلـق بابتسـامة هـذه المـرة بـدت رائعـة:

«إن السـر الحقيقـي ليـس في الكـوب.. ليـس في الجسـد ولا الـروح.. إنـه في اليـد التـي تمسـك بهـذا الكـوب.. إذا عرفـت كيـف تصنعـين هـذه اليـد أو تكتشـفينها فسـوف يتحقـق حلمـك..»

شعرت سوسن بأنها تريد أن تسمع المزيد.. عن سر هذه اليد العظيمة التي تمسك بالكوب فتمنع الماء من التدفق والزجاج من الانكسار إن سقط الكوب، وهي يد رائعة ونظيفة فلو كانت متسخة لشوّهت الزجاج.. بدأت تفكر في هذه الاحتمالات التي لم ترد في ذهنها من قبل، وسألت نفسها: «هل يقصد بهذه اليد العظيمة، اللّه، الخالق أم شيء آخر.. الصورة الأقرب لما يريده هي صورة الرب».

لم يكمل الرجل.. تركها في تفكيرها وحيرتها.. ولم ينته الحوار حيث امتد بعيدًا عن هذه النقطة إلى أمور أخرى متعددة وكثيفة.. اكتشف أن البنت ذكية وأن أمله لن يخيب فيها، فالنظرة الأولى كانت دقيقة وفاحصة. إنه الحب من أول نظرة.. غير أنه حبّ آخر يتعلق بحب النجاح والقفز في سلم الحياة بأن ترى من يحقق لك أحلامك، فمنذ أن تأسست الفرقة وهو يراوده أمل معين أن ثمة ما سوف يخلق لهذه الفرقة تاريخيًا عظيمًا ذات يوم، الآن يشعر بأن هذه الفتاة هي ذلك الأمل المنتظر.

إلى تلك اللحظة لم يكن عمر الأزرق، يدري أن الفتاة التي أمامه هي ابنة محمد علي باشا، باروخ اليهودي.. وهل لو عرف ذلك سيكون الأمر مختلفًا؟ بالنسبة له لا مشكلة كما فهمت سوسو جيدًا.. المشكلة قد تتعلق بالمكائدين وما أكثرهم.. فربما

سـرّب أحدهـم الخبـر إلـى جهـات عليـا لتكون الكارثـة قريبـة.. أعـداء بـاروخ مـا أكثرهـم في هـذه الأيـام وأولهـم ذلـك السـكرتير اللـدود.. عندمـا تصبـح المحبـة عـداوة بغيضـة. وقـد قـرر الأزرق أن يُبقـي الأمـر في منتهـى الخفـاء.

●●●

الابن باروخ

في الواقع كانت تسيبي هي من رافقني ونحن نعبر الحدود بين مصر والسودان عبر سوق كبير لبيع الجمال في وسط الصحراء، يأتون بها من إقليم دارفور عبر ذلك الطريق التاريخي المسمى بدرب الأربعين، يقال إنهم في تلك الأزمنة كانوا يسيرون لأربعين ليلة حتى يدركوا المسافة بين غرب السودان وشماله الأقصى في هذا السوق بالتحديد، حيث يصعب عليك أن تفهم أين أنت بالضبط في مصر أم السودان، كما أن سحنات الناس تتشابه والعملة تتداخل، كل شيء تقريبًا حتى طرق المساومة على البيع والشراء.

نشتري بعض الأغراض، سنسميها هدايا لأصدقاء قدامى تركتهم في الخرطوم قبل عشرين سنة، أعتقد أنهم أحياء يباشرون الحياة في وطنهم ولكني لست متأكدًا، فمنذ تلك الفترة القصية لم نلتق عدا واحداً منهم فقط كنت قد قابلته صدفة في مطار روما وأنا في طريقي لبروكسل لحضور مؤتمر هناك. الصدفة أحيانًا تصنع ما لا يصنعه القدر. رغم أني لا أعرف الفرق بينهما.

إنه صديقي ذات شباب، محسن النصري ذلك الرجل الذي يعيش مثل رحال متجول في حياته المفعمة بالحب للناس، قد يكون صوفيًّا ومثاليًا لكنه أيضا إنسان عملي لا يعرف كيف يضيع وقته،

إذا كانت هواية كثير من السودانيين هي تسويف الوقت لأغراض غير مفهومة أو ربما للإحساس بعدم الجدوى أحيانًا. فالسوداني إنسان غريب يصعب عليك أن تفهمه حتى لو عشت معه عشرات السنين.

تقول لي تسيبي وهي تحمل مسبحة ترفعها لأعلى، كانت منسقة وتضيء أمام الشمس مصنوعة من بلورٍ راق:

«هذه بالضبط سوف تكون أجمل هدية لصديقك هذا الذي تتحدث عنه كثيرًا»

أضحك بشغف وليس هذه عادتي. لكن الصحراء تسمح للإنسان أن يرفع صوته ويستمتع بالأشياء من حوله سواء كان جادًا أم محتالاً.

أنهض من على الرمل، أجد أنني أتأمل حولي الإبل الواقفة في صف منسق وهي تشرب الماء وتتجشأ بطريقة سهلة وكأنها تشعر بالمتعة أن الحياة لها معنى.

هذا المنظر يعيدني لطفولتي، فمرات كان لي وأنا صغير جدًا أن أتصوّر نفسي حيوانًا معينًا ثم أحاول أن أعيش التجربة مع نفسي كيف سأفكر في البيئة والحياة من حولي.

مثلا أتصور أنني.. أكون (أنا) قطًا، أقوم بتقمص هويته ثم أبحث عن اللحم والفئران وبعض الحليب ومن سيكون عدوي

اليوم ومن سيصبح صديقي وهل سوف أسافر لمسافة طويلة إلى الجزارة القريبة من بيت صاحبي، مالك القط الذي هو أبي؟ وكم سأرتكب من الأخطاء لأطرد من البيت لأن صاحبي يرغب مرات في تغيير القطط والكلاب لأنه ملول، غير أن ذلك يرتبط بخطأ يصدر من الحيوان، ولهذا يجب ألا أخطئ؟!

استيقظ لأجد نفسي أنا باروخ الحمار ومرات الجرذ والتمساح، أو الكلب جيمي الذي يتجول على شاطئ النيل الأزرق قريبًا من مكتب مصلحة الأراضي ومرة أجد نفسي حشرة صغيرة أو كبيرة الحجم كحشرات كافكا.

كانت لعبة ممتعة ولم أكلم عنها جدي حتى لا يسخر مني فهو يريدني ضابطًا فحسب، والضابط إنسان ملتزم بعقل كبير، والحيوانات عقولها صغيرة كما سمعته يقول ذات مرة.

تنساني زوجتي بعد أن تجدني مستغرقًا في حالة ما، وتسرح في عوالمها، أعرف بالضبط ما الذي تفكر فيه. التطريز على الملابس لا شيء آخر ترغب في تحويل كل شيء أمامها إلى مطرزات على الثياب، بالنسبة لها العالم وفي آخر أيامها قبل رحيلها مطرزة كبيرة صاغها الرب بأناقة وهدوء ودون عجلة.

تسمعني من بعيد أرد عليها أخيرًا:

«نعم هدية مناسبة.. ولكن قد يكون مزاجه قد تغير بعد هذه السنين الطويلة.. وربما هو الآن غير موجود في الخرطوم»

استمر في التفكير بصوت مرتفع، في صديقي القديم.. النصري. قبل أن التقط صورة بالكاميرا العتيقة لتسيبي وهي تمسك برسن أحد النوق التي انتهت من الشراب وبدأت تفكر في التقاط الصور مع السياح أمثالنا العابرين بالمكان.

بالمناسبة لابد لك أن تدفع على الصورة مع الناقة وإلا لما سمح لك بأخذها، وعمومًا فكل شيء غالٍ هنا، يغالون في الأسعار بهدف الربح السريع، ويعدون الأموال بطريقة شرهة.

يقولون عنا نحن اليهود إننا نحب المال، غير أن البشر أجمعهم يحبون المال، الفرق أن ثمة من يعرف كيف يأتي بالمال ويجعله ينساب بسهولة ومن يحافظ عليه ويدبره ومن يفقده بالسرعة التي أتى بها.. وهؤلاء السكان هنا في هذه المنطقة لا يحفظون المال، ما أن يأتي الليل حتى يشرعون في حفلات الشراب والرقص الماجن حتى آخر الليل، ينسون تقاليدهم الإسلامية والأخلاق السمحة التي لا تجيز لهم ذلك، ولكن هذه عادة الكثير من البشر أيضا، أن يكون المرء أكثر من شخصية وأكثر من خيال لنفسه، وأن يتنقل بين مساحة القيد الوهمي الذي يفرضه على نفسه وبين ذاته الأخرى التي يرغب فيها ويغلفها بالقيم والأخلاق.

هذه الصورة لتسيبي مع الناقة أو الجمل، ما زالت في الألبوم بالدرج. استطيع أن أؤكد أني أحببت هذه الفكرة ذات يوم بعيد، ربما بإشارة من صديقي النصري في زمن بائد، أن نذهب في رحلة إلى صيد الغزلان عبر صحاري العتامير في شمال السودان ونعيش أيامًا مع الجمال في الصحراء، فالرجل تعود أصوله إلى القبائل المهاجرة من الجزيرة العربية التي تقطن شرق السودان والمهمومة بمثل هذه الأمور كتراث متوارث، وبالتالي في باطنه تنزرع هوايات البادية العربية كالصيد والقنص والفروسية، وقد كان يمتلك مجموعة من صقور الصيد، لكنه في النهاية كان قد باعها كلها لأنه لم يحب هذا الإرث وعرف أن علاقته به متوهمة لا صحيحة.. واكتشف أيضًا أنه إذا لم تتدرب على هذا الأشياء من الصغر فمن الصعب أن تجيدها، وأن التقاليد يمكن أن تتلاشى مع الوقت في ظل المدنية والرغبة في ابتكار حياة جديدة، غير أنه حافظ على مهاراته في ركوب الخيل مرات والإبل بطريقة بارعة.

تستمر خواطر الرحلة المتخيلة في ذهني.. النصري سوف يقابلنا حتمًا في الخرطوم سوف يكون قد أصبح كبير السن. هو أكبر مني في الأساس بخمس سنوات على الأكثر. ومن ثم أنساه لأنشغل بمراقبة مجموعة من الطيور تعبر أفق السماء مهاجرة من بلد لآخر، تسير بطريقة منتظمة في السماء، لا تعرف أن تلتفت للوراء، فهي متأكدة من خطوها ورحلتها، تسد الأفق تمامًا حتى تكاد الظلمة تغطي المكان في وسط الظهيرة.

تبدأ تسيبي في التقاط مجموعة من الصور للطيور إلى أن تمضي رويدًا وتتلاشى في الأفق البعيد، أكون معها في تلك اللحظة قد شعرت بحيوية غامرة، نوع من الإحساس الذي لا يوصف أن لي جذورًا في هذه التربة التي أعبر بها. وبدأت أسأل نفسي «هل يا ترى سوف أعود إلى إسرائيل؟ إلى بيتي في يافا أم سأظل هنا؟»

كان صعب علي أن أؤكد وسط محاصرة اللحظات الأخيرة من النعاس القوي، فأنا مرهق جدًا.

●●●

سوسو

المفاجأة التي كانت تنتظرني أن السيد الأزرق وجّه لي سؤالا مباشرًا عن جواز سفري، هل هو جاهز؟ يعني أنني اجتزت كل الاختبارات المحتملة ويجب أن أسافر إلى الصين فورًا.. يعني اختصار زمن طويل يجلسه آخرون وهم ينتظرون تحقيق حلم أن يكونوا أبطالاً في الأكروبات.. وقد مرّ الأزرق بهذه التجربة جيدًا في سنوات قديمة كان مثل هذا الحلم مستحيلاً.

حاولت أن أتذكر هل جوازي صالح للسفر، لا أذكر متى جدده والدي آخر مرة، لأنه منذ سنوات لم نعد نسافر بسبب الأوضاع التي نعيشها خاصة بعد وفاة والدتي.

في الطفولة وإلى العاشرة يمكن، كنت قد صحبت والدي في عدد من الرحلات إلى أوروبا وأمريكا الجنوبية، أتذكر تلك الرحلات كأنها في حيّز الأحلام وليست في الواقع.. يحدث ذلك مع تباعد الأيام. ولاحقًا عندما زرت البرازيل كنت أفكر هل هذه هي البلد نفسها التي شاهدتها وأنا طفلة بحدود الرابعة من عمري. ليس لي أن استرجع المعالم ولا تفاصيل قديمة جدا، والبرازيل نفسها تغيرت كثيرًا كما يقول أهلها. فالعشرون عامًا التي مضت، قد غيرت الكثير من معالم البلد.

تبدو الحياة وقد توقفت، تلك الأنهار المنسابة من الترف والفرح، هل كنت طفلة فرحة بحق، أعيش على سجيتي وأتعلم من المراقبة والتلصص على العالم بعينين مفتوحتين.. صعب أن استرجع كل شيء.. مرات أتمنى أن تعود تلك السنوات، أعود طفلة يأخذني أبي معه ونسافر حول العالم.. ليس هناك أجمل من عالم يصعب العثور عليه مرة أخرى.. هي متعة الحياة وقبحها في الآن ذاته، عندما تُشعِر الإنسان بأنه غير مرغوب فيه.. وبعد أن تتبدل الحيوية والسعادة البريئة إلى الافتعال الذي يغطي كل الأشياء، وعندما تتباعد تلك اليد العظيمة لسبب غير معروف.

تعثرت أنهار الحياة ولم يعد الزمن كما كان من ذي قبل، لم تعد الدعة ولا الراحة ولا سفرنا في عطلة الصيف قائمة. فالنظام الجديد في حياة العائلة أخذ كل التفاصيل الجميلة التي عشناها في سن مبكرة من عمري، والتي قد لا تتكرر مرة أخرى. كنت أتحدث مع نفسي وربما أرغب في أن أفضفض مع الرجل أمامي بهذه الكلمات، ثم قررت، لا. لا يمكن أن أبوح بأسرار العائلة حتى لو أن سرًا لم يبقَ في واقع الأمر.

لم ينتظر مني الأزرق إجابة على سؤاله حول جواز سفري، وتناسيت السؤال.. وأخذني من يدي في جولة بالمبنى القديم.. ماذا سيريني يا ربي؟ ومرات كان قلبي يحدثني أن خديعة ما تحاك لي

من قبل هذا الرجل، فما الذي ورطني بالمجيء إلى هنا.. ومن بعيد كانت نظرات رجل الاستقبال وهو الشخص الوحيد الثاني بالمبنى، تحاصرني وهو يبتسم بشكل مبتسر. ما يعمق الشك في نفسي، وإلى اللحظة كل الأمور بخير وعليّ أن استمر في الورطة لأجل حلمي. سأكون شجاعة إلى النهاية، وسأغلب الجانب الذي يجعل قلبي يفيدني بأن هذا الأزرق سوف يساعدني بحق، بغض النظر عن الثمن الذي يفكر فيه. لا شيء واضح إلى الآن.

أشار إلى صالة مغلقة تراكمت فيها الأوساخ، والزجاج مهشم يمكن عبره رؤية مكان مهمل وبائس، قال لي:

«هذه صالة التدريب ولكنها للأسف غير مواكبة لما يجري في العالم»

عاد للاعتذار قائلاً:

«ربما لم أكن دقيقًا.. ليس الأمر مجرد مواكبة إنه التخلف.. نحن نعيش في بلد متخلف يا سوسو»

قال ذلك وتلفت عسى ألاّ يسمعه أحد، وأبدى شعورًا أنه يثق بي. فالمتلصصون سوف ينقلون مثل هذه الإفادات السمجة التي تعني أن رجال السلطة سوف يحاربوك. خاصة أنه قبل قليل كان يخبرني عن تشجيع الدولة للمواهب والرئيس نفسه مهتم بذلك.

أضاف يوضح لي، كمن يفكر في كلماته قبل قليل:

«أنظمة الحكم السابقة لم تهتم كثيرًا بالأكروبات، أما النميري فعلى العكس يفهم كثيرًا في أهمية الألعاب البهلوانية والسحرية، ويرى أنها يمكن أن تعيد تشكيل الحياة ورؤى الشعب السوداني»

أردت أن أوجّه له سؤالاً، هل الرئيس يفهم في هذا الشيء، فعلا أم أن هذا الكلام يقال ممن هم حوله؟

سريعًا أدركت أنه يجب أن أحدد أسئلتي في الأمور التي تتعلق بمستقبلي في هذا المجال. فأي أسئلة أخرى ذات طابع سياسي لن تخدمني، وسوف تجرني إلى الخطأ وربما أفقد فرصتي حتى لو أن الأزرق يبدو متمسكًا أو معجبًا بي، بجسدي وشخصيتي.

وسمعته يناديني من داخل مخزن صغير، ويحدثني:

«انظري هذه الأدوات كانت في فترة سابقة ما قد استوردت ولا تزال في المخازن لأنه أثناء فترة النميري الأولى وبسبب الصراعات تم رفض طلب تقدمت به بتحمل نفقات تدريب الفرقة الوطنية، بحجة أن ميزانية الدولة لا تكفي لمثل هذه الترهات»

حكى لي: «البرلمان كان قد ناقش الأمر وانقسم النواب حول الموضوع، قسم رأى أن تخصيص موازنة لفرقة تقدم السحر أمر حرام لا يتقبله الدين، لقد خلطوا بين السحر والخفة. وقسم

رأى أن الأمـر لا غبـار عليـه ولكـن هـؤلاء تراجعـوا في نهايـة النقـاش بعـد أن تم حشـرهم في خانـة الجاهلـين بأسـس العقيـدة.. صدقينـي جميعهـم يدعـون معرفـة الإسـلام بشـكل جيـد وبعضهـم لا يجيـد الوضـوء.. هـذه الحقيقـة»

استمر يشرح لي مشيرًا إلى حقيبة رفعها من وسط الركام:

«هـذه الحقيبـة مثـلا سـتفهمين غرضهـا لاحقًـا.. يجـب أن يختبـئ داخلهـا شـخص وهنـاك مـن سـيحمل الحقيبـة ويرمـي بها على المسـرح ليخـرج ذلـك المختبـئ ويوجـه لكمـة إلـى حامـل الحقيبـة، ليبـدأ عـرض شـيق مـع الموسـيقى.. يمكننـي أن أتخيلـك وأنـت تخرجـين بخفـة مـن داخلهـا والجمهـور يصفـق لـك طويـلاً»

كما لو أنه سوف يبدأ في الغزل، لكنه توقف.. لأساله:

«سـيد عمـر لكـن مـا السـبب الـذي يجعـل هـذه الأدوات مرميـة إلـى الآن ولـم تسـتخدم؟»

ردّ علـيّ بابتسـامة صغيـرة، انتبـه مـن خلالهـا إلـى أنـه ثرثـر كثيـرًا، قـال:

«الأجهـزة عـادة لا تعمـر طويـلاً فالشـركات ترغـب في ابتـكار الجديـد دومًـا.. فالمعـدات الحديثـة تفسـد سـريعًا مـع الزمـن.. أنهـا الآن لا قيمـة لهـا، لقـد خسـرناها مـع صراعاتهـم»

ثم استدرك: «لم تعد صالحة كذلك فقد تجاوزتها فنون الأكروبات الحديثة.. هذا العالم يتطور بشكل خرافي وسريع.. في عالم اليوم كل الأشياء سريعة واستهلاكية والناس ملولة بطبعها.. ومن لا يواكب التغيير السريع سيجد نفسه قد خرج من طابور العالم»

وطبعا كان قد أخفى ما وراء ذلك من قصص المناقصات والسرقات الحكومية المألوفة، في بلد يعيش اقتصاده على السماسرة واللصوص.. يستبدلون الأغراض سريعًا لأنهم يرغبون في السرقة لا غير.. وعليهم أن يجعلوا صلاحيتها محدودة لكي يكون لهم إبدالها سهلاً، وهذا يعني مزيدًا من المال المنهوبة التي تذهب إلى جيوب اللصوص.

كنت متأكدة من مثل هذه القصص من والدي، فلدي ثقافة في الطريقة التي تدار بها مثل هذه المؤسسات الحكومية.

انقطع فكري في قضية لا تبدو مهمة حاليًا مع سماعي الأزرق يناديني:

«سوسو»

من هي سوسو؟ هل هي أنا؟ وربما ارتبكت بعض الشيء وأنا اسمع هذا اللقب الجديد، كانت والدتي مرات تناديني بسوسو وهذا انتهى قبل موتها بشهور.. ولم يعد من أحد بعدها اسمعه

يلفظ سوسو. وكمن ينادي من عالم ثانٍ، بصوته الذي يأتي من داخل المخزن كثيف الغبار كلمني:

«سوسو.. هي صورة المرأة الحلم التي كنت أراها في منامي والتي هربت مني ذات يوم.. كنت مقتنعًا بأنني سوف التقي بها»

شعرت بالحياء رغم شجاعتي وقدرتي على المواجهة، فالرجل جريء بدرجة مبالغ فيها ولم يكن أمامي سوى الصبر عليه، كما أن وجوده داخل هذا المكان الضيق وإصراره على أن أكون معه لأرى هذه الأغراض المهملة التي فقدت قيمتها كما يدعي، مسألة تثير الشكوك لمن يطل من الخارج في أي لحظة، فماذا سوف يفهم سوى أن رجلاً يعيش ببقايا سكرته يريد أن يجر فتاة حديثة البلوغ إلى مخدعه، فقد أتتني الدورة الشهرية لأول مرة قبل عام ونصف وفي سن مبكرة نسبيًا قياسًا بالأخريات من زميلاتي بالمدرسة.

ولم أتخوف كثيرًا بأنني ربما غامرت بمجهول أن أعيش مع هذا الرجل تهاويمه الذاتية وثرثرته المتواصلة، فقد خرج من بين الغبار وعدنا إلى المكتب لأتنفس شهيقًا طويلاً أنني بخير، خاصة أنه بدا لي واضحًا أنه ليس من أناس آخرين هنا، سوى هذا المدير الذي يخلط بين اليقظة والأحلام وربما لم يستيقظ بعد، وبالطبع كان هناك أيضًا موظف الاستقبال المريب.

رفع عمر الأزرق سماعة الهاتف الثابت ليتحدث مع شخص ما على الطرف الثاني، أخبره بأنه يرغب في إضافة عضو جديد للمتدربين المسافرين إلى الصين، ومن خلال ما سمعته بوضوح فهمت أن هناك فريقًا من الشباب سيغادر غدًا في الصباح إلى بكين للتدرب على مهارات الأكروبات بشكل علمي.

بدا لي ذلك الخبر غريبًا فالمكان هنا لا يقدم أي حكاية عن أناس حقيقيين لهم وجود، بل يبدو كأنه لا يدخله أحد أبدًا. فأين هم هؤلاء الشباب؟

ولم أشغل بالي بالمزيد من الفهم، إذ أخبرني عمر:

«سوسو ستكونين العضو الحادي والعشرين في الفرقة المسافرة غدًا.. أعرف أن الوقت ضيق لكن كل شيء سيحل.. فقط يجب أن تحصلي على موافقة ولي أمرك»

قاطعته:

«لكن جواز سفري...»

قاطعني هذه المرة:

«ليس مهمًا.. سنحضر لك جواز سفر جديد في غضون ساعتين على الأكثر.. ليس هذا شأنك»

أجرى مكالمة ثانية وثالثة قبل أن يظهر بجدية تامة هذه المرة، قال:

«سيأتي بعد قليل شخص ليأخذ منك البيانات؟ هل لديك صورة بحجم الباسبورت؟»

لم أتوقع ذلك التطور العجول.. ومن أين سآتي بصورة لكن الأقدار مرات تخدم الإنسان، فقد تذكرت أن لديّ واحدة في حقيبتي الصغيرة المرمية بطرف الطاولة، أخرجتها على الفور وقدمتها له، وقبل أن ينظر إليها ليتأكد من خصائصي الفريدة التي تجعلني أنال هذه الحظوة دون العشرات ممن يكافحون دون جدوى في سبيل الحصول على رحلة كهذه، أخبرني:

«سوسو.. من الضروري أن يوافق ولي أمرك.. السيد باروخ»

هنا كنت قد انزعجت.. فهل سيتركني أسافر وهو غير مقتنع بجوهر الفكرة، كيف لي أن أقطع دراستي وأنا على مقربة من نهاية عام دراسي وخلال عام سوف أكون على عتبة الجامعة ولابد أن أدرس المعمار كما ينتظرني؟!

وحاولت أن أدس هذه المخاوف عن الأزرق الذي أحس بذلك وإن كان بظني قد حدس أن الأسباب مختلفة، لم يدر ببالـه ما يتعلق بالممانعة إنما برفض يتعلق بكراهية قد يبديها والدي لمشاركة ابنته في فرقة يهتم بها النميري شخصيًا.

ولم أجد مفرًا من التعبير عن مخاوفي.. الأسباب الحقيقة التي تجعلني متخوفة ومترددة.. وقد كان الحل واضحًا من قبل السيد الأزرق، الذي صنع لي حبكة سريعة، حيث أخبرني:

«ما دمت لديك الرغبة.. ولدينا الرغبة كذلك.. فالحل واضح.. الحل السهل والعسير.. لا تنزعجي بالتفاصيل.. سوف أقوم بكل شيء.. المهم أن تكوني جاهزة بحدود صباح الغد لكي تسافري مع الفرقة»

وأضاف: «على أي حال فاسم والدك في حد ذاته شبهة.. لهذا من الأفضل أن نفعل شيئًا مختلفًا»

«تعني أنكم سوف تزوّرن في اسمي؟!»

«اسمك لا.. اسمك سيكون كما هو عليه.. سوسو»

قالها بنظرة مركزة باتجاهي يراقب من خلالها ردة فعلي، ولم أهتم بذلك.. ليكن سوسو.. سوسن. ليس مهما.

أوضح أكثر:

«تغيير طفيف في اسم والدك.. بدلا من محمد علي باشا.. سيكون محمد علي فحسب، فكلمة باشا تثير الاستغراب خاصة مع هيئتك العامة ولون بشرتك»

وبرر موقفه بأن الاسماء في النهاية ليست إلا استعارات يتفق عليها الناس، وبهذا يمكن أن تتغير.. لا شيء ثابت. وفكرة أنك تخدع أو تزوّر ليس لها من مبدأ واضح يحتكم إليه، فمن تخدع في واقع الأمر؟ الخداع الصحيح يكون للذات وليس لأي كائن آخر.

ثم مضى يفلسف الأمر ويربطه بعالم الأكروبات..

«إنه لعب في لعب.. يعني أكروبات وعمل بهلواني.. لا تنسي يا سوسو إننا في سيرك الحياة ولعبتها الكبيرة.. وعلى الجاد أن يمضي إلى النهاية بلا حياء أو خوف»

وسجل على ورقة أمامه قبل وصول الرجل الذي من المفترض أن يأخذ الورقة..

الاسم: سوسو محمد علي محي الدين

تاريخ الميلاد: ١٧ نوفمبر ١٩٦٣

مكان الميلاد: بري – الخرطوم (ليس صحيحًا)

بعد أقل من ساعة كان شاب قد حمل الورقة والصورة الفوتوغرافية وخرج في حين أخذت حالي باتجاه بيتنا وأنا أفكر في احتمالات الصباح التالي، بالتحديد الساعة السابعة صباحًا الموعد المفترض فيه أن أكون في المطار، وكل شيء سيكون جاهزًا هناك.. جواز سفري وتذكرتي وتأشيرة الخروج.. فقط ينبغي أن أحضر بجسدي الذي هو مفتاح سر هذه اللعبة كلها.

صافحني الأزرق مودعًا وأحسست بملمس يده وقد بات أكثر طراوة كأنه يوصل لي رسالة معينة ولم أهتم.

قال لي إلى أن أوصلني الباب الخارجي وسيارة الأجرة التي أوقفها لي ودفع المبلغ مقدمًا:

«أراك غدًا لا تتأخري»

كان متأكدًا من حضوري.. عيناه تقولان ذلك ولم يكن يبدو عليه أي إنزعاج بخصوص والدي، يبدو أكثر من واثق، من شجاعتي وقدرتي على أن أكون جريئة باتجاه ما أرغب فيه.

●●●

باروخ جولدشتان

استيقظت عصرا لأبدأ في الكتابة على الشاشة البيضاء، كتبت أن قصتي ليست شبيهة بأية قصة أخرى لكنها ليست فريدة من نوعها، وأنني إنسان متصالح مع نفسه. قد يشعر بعض الناس بأنني كريه أو محبوب بحسب التصنيفات التي تمليها أهواؤهم أما أنا فأعرف من أكون.

وكتبت أن الكراهية التي يبديها بعض الصحفيين لي وهم يعلقون على مقالاتي السياسية التي كنت أنشرها في هآرتس وغيرها من الصحف وأنني خيالي أو غير واقعي أو غيرها من التوصيفات.

كتبت أن هذه القصاصات والمقالات لا تهمني كثيرًا قد تكون أصبحت تاريخًا الآن، هم بدؤوا فعليًا ينسون هذا القلم البارع (باروخ جولدشتان)؛ على الرغم من أنهم يستلفون أسلوبه في السرد وفي تحييد التاريخ وجعله مهزلة في مقابل الواقع البديل الذين ينتجونه في مقالاتهم.. وهذه الطريقة في الكتابة لا تختص بعالم السياسة بل هي من صميم الأدب في الأساس، تم استلافها عبر عملية لامرئية أو لا شعورية، في الصحافة الإسرائيلية وكان باروخ هو السبب الرئيسي في هذا المنهج.

لا أعرف كيف سيتعاملون إذن مع مذكرات اليهودي باروخ، هل سوف يقولون إنه يروي حقيقة تاريخه أم أنه يُسوّف كالعادة، فإذا كانوا هم في حيرة بشأن الجزء الحي والواضح من حياتي هنا في تل أبيب فما بالهم مع الجزء الغائب والخفي من حياتي الثانية في السودان، ذلك الجزء اللامرئي إلى حين بلغت سن الأربعين تقريبًا أو أكثر بقليل، عندما كان لي أن أصل إلى بلدي الجديد.

هل سيقولون إنه يمارس التخييل والأكاذيب؟

أم أنه عجوز فقد ذاكرته ويهزئ أم سوف يتقبلون القصة برمتها؟!

اعتقد أن جدلاً سوف يثار حول الأمر، لأنني وطوال أربعين سنة أخرى مضت من عمري هنا، في إسرائيل كنت نادرًا ما أتطرق لتاريخي القديم في الخرطوم، ربما إلا مع قلة جدًا وفي حدود ضيقة مثل صديقي إسرائيل الذي لا يحب السودان مطلقًا كما يقول رغم أني مرات أشك في إفادته.

إذا كان لي أن أفهم ما يتعلق بي فلست خبيرًا في شأن ذهن آخر، فقصة محاولتي تحييد السودان عن حياتي هنا ربما تعود لأمور معقدة وتداخلات كثيرة تحتاج مني وقتًا طويلاً لفرزها.

ربما كان هذا أحد الأسباب التي تدفعني الآن للكتابة عن تلك المرحلة، ليس لتصفية حسابات، فلست من الناس التي تؤمن بالثأر، أو كذلك لحنين كاذب فقد وصلت إلى العمر الذي يجعلني أرى الشغف والنوستالجيا نوع من الترف الذي يعيشه المحرومون أو المنافقون.

ربما أكتب فقط لرغبتي في الاكتشاف تلك الخاصية التي تسكني، حبي للبحث والعمل الأكاديمي والرؤية المختلفة للأشياء؛ أن تعثر على زاوية نظر أخرى تفهم بها الأمور وهذا شغف ومتعة خاصة لي.

إن حياة الإنسان بقدر ما هي ملك له في اللحظة لكنها مع الوقت تصبح ملكًا عامًا حتى هو لا يستطيع أن يتصرف في ماضيه أو تجربته، لهذا فالعاقل سوف ينظر إلى سياقه العام وحصاده كما لو أنه ينتمي لشخص آخر إذا ما رغب في فهم الأشياء بعقلانية. لهذا لابد من الجدل.. ولابد أن ثمة كلامًا كثيرًا سيقال لاحقًا.. لكن عليّ أولاً أن أكتب القصة كاملة، أسطرها بغض النظر عن حدود الخيال والواقع وهذا أسلوبي الذي ليس بإمكاني أن أتحرر منه، أن أنزع قشرياتي.

كنت قد بدأت برواية قصة تلك الرحلة إلى الصحراء، وهنا ليس من الضروري.. أن أروي أو أقول لأحد إنني لم أذهب إلى

هنـاك، لأن ذلـك سـوف يفسـد كل شـيء.. سـوف أكتـب القصـة كمـا حدثـت فحسـب أو كمـا سـوف يقرأهـا أي شـخص يكـون قـد حمـل الكتـاب واسـتلقى في أي مـكان أو هـو واقـف في حافلـة عامـة، غائصًـا في متعـة القـراءة. لاسـيما هـؤلاء الجيـل الجديـد مـن الشـباب اليهودي الـذي يقـول إنـه يحـب التاريـخ أو بعـض مـن العـرب الذيـن نسـوا أصولهـم واندمجـوا في الهويـة الإسـرائيلية، قابلـت العشـرات منهـم يتعجرفـون علـى أنهـم إسـرائيليين أقحـاح أكثـر مـن إسـرائيل نفسـه، بنيامـين لـه أصدقـاء مـن هـذا النـوع وهـو لا يطيقهـم. لا أعلـم إن كان فيـه نزعـة عنصريـة.. لكننـي أعلمـه جيـدًا فهـو يحـب الأصدقـاء الصادقـين مـع أنفسـهم مثلـه مثـل أبيـه تمامًـا.. لـي ان افتخـر بنفسـي، فـلا أحـد يسـمعني.

●●●

سوسو

طوال الرحلة الجوية إلى بكين على متن الخطوط الجوية السودانية، لم تفكر سوسن في الوقائع التي مرت بها خلال الأيام السابقة، ولم تكن تدرك ما الذي جري معها بالضبط، وهل هي صادقة مع ذاتها أم لا؟

كانت قد جلست على مقعد منفرد في نهاية الطائرة وبدأت في التدخين - في ذاك الزمن لم تكن شركات الطيران قد منعت التدخين على متنها - وقد كان من المستغرب أن تدخن فتاة في مثل سنها، لكن سوسن لم تكن تحفل بأحد، لقد عزمت أن تتخذ القرارات التي تخصها دون أن تسمح لأي كائن بالتدخل ليعلن وصايته عليها.

تربت على هذا الشيء من والدها، الذي يشعر الآن بالكثير من الحزن أن ابنته الوحيدة غادرته وتركته وحيداً دون أن تراعي الظروف النفسية التي يمر بها لا سيما بعد أن أهتز وضعه المالي وأصبح يقضي معظم الوقت بحديقة المنزل هرباً من الناس في الخارج.

تشعر بين لحظة وأخرى بنوع من وخز الضمير، ارتكاب الخطأ والإقدام على مغامرة غير مدروسة، تزن هذه الأفكار برأسها في تداخل يضعها في حالة تشبه الدوار.. تقاوم الدوار وتستمر في التدخين بشراهة حيث تظن أن السيجارة يمكن أن تساعدها في المقاومة والنسيان، إلى أن جلس عمر الأزرق إلى جوارها وسألها دون مقدمات:

«سوسو فيّما تفكرين، أراك مشغولة بأمر ما»

لا تستطيع أن تحكي ما جري، لأن نصف الحقيقة غائبة عنه، ونصفها الآخر مجرد أكاذيب اخترعتها حتى تهرب بأسرع ما يمكن إلى هدفها الجديد في الحياة.

هل تحكي له كل شيء وتنتظر ما الذي يحدث؟ وحتى لو حدث ذلك فلن يغير القول شيئًا فمن الواضح أن الرجل متعلق بها وقد صرح لها بهذا الشيء منذ البداية.

نفثت الدخان يتصاعد إلى أعلى في بطء وهي تفكر بعمق في اللاشيء ونظرت إلى عمر، يبدو كأنه غير موجود في المقعد إلى جوارها، وللحظة غائبة عن اللحظة ظنت أنها داخل حلم أو كابوس مزعج وعليها أن تخرج منه بمقاومته.

صوت أقدام المضيفة على أرضية الطائرة جعلها تفهم أنها في الواقع، داخل طائرة تحملها وعشرين من رفاقها إلى الصين لقضاء عام ونصف العام في تعلم فنون الأكروبات.

أمامها على كيس صغير مجموعة من الكتيبات التي وزعت من قبل طاقم الطائرة، والمطبوعة بشكل فاخر، مدت يدها وأخذت واحدًا منها، تصفحته على عجل، وبفعل التوتر لم تقرأ، فقط طالعت الصور لمشاهد مختلفة من الصين، أبرزها المعلم المعروف تجدًا لأغلب الناس، ذلك السور الضخم. رمت بالكتيب على المقعد المجاور من جهة اليسار والذي كان خاليًا، ودون أن تشعر كانت قد استغرقت في نوم عميق، في حين انسحب عمر إلى أحد المقاعد الأمامية يتأمل السحب البيضاء تحت الطائرة قبل أن يدخل الظلام تدريجيًا، وكلما تقدمت الطائرة نحو الشرق بميلان إلى الجنوب كانت حدة الظلام تزداد، والعالم يبدو غريبًا وغامضًا.

ورأت سوسن نفسها تطير في فراغ كبير بين أقزام على سفح جبل شاهق، وتارة أخرى كانت تسير وحدها وسط الخرطوم عارية دون أن يهتم بها أحد من المارة، وفي حلم ثالث رأت والدها ينسج طاقية من صوف الحيوانات.

كلها أحلام مزعجة، إلى أن استيقظت على صفارة الإنذار وإضاءة الإشارات الحمراء وصوت الكابتن يقول:

«على الركاب ربط الأحزمة فالطائرة تمر بمنطقة مطبات جوية»

حاولت أن تتذكر المكان والزمان، ولثواني نسيت كل شيء، بعدها أدركت أنها على متن طائرة وتملكتها الرغبة في التدخين مجددًا، إذ لم تكن مستعدة للانتظار حتى نهاية منطقة المطبات.

أشعلت السيجارة فأضاء عود الثقاب المكان، لترى أن الجميع تقريبًا قد غابوا في نوم عميق.

تقدمت نحوها إحدى المضيفات وأخبرتها بأن عليها أن تطفئ السيجارة فالتدخين في هذه المرحلة من الطيران ممنوع، عليها أن تنتظر لدقائق حتى تعبر الطائرة المطبات الجوية ومن ثم لا مشكلة. لكنها عنيدة ومتوترة جدًا الآن. لم تستجب للمضيفة، وارتفع صوتها فاستيقظ مجموعة من الركاب، ومن ضمنهم عمر الذي نام للتوّ.

وعندما رأت مديرها ينظر نحوها، فقد استجابت لأمر المضيفة ونظرت إلى السقف دون أن تتكلم بعد أن أحست بالخجل وأنها أصبحت في عيون الجميع من حولها.

عندما هبطت الطائرة في مطار بكين الدولي، كانت المجموعة السودانية ترتدي ملابس صيفية، وأحس الجميع بالبرد مع توقف الطائرة.

ارتعدت سوسن مثل غيرها من الهواء البارد، وسارعت إلى ارتداء الملابس الشتوية التي جهزها مدربون صينيون من فرقة (تشنغتشو) وهي الفرقة المكلفة بتدريب المجموعة وفق بروتوكول تم التوقيع عليه بين الحكومتين الصينية والسودانية قبل سنتين ولم يُفعَّل إلا مؤخرًا في الجانب المتعلق بتدريبات الأكروبات، فالحكومة السودانية كانت مهتمة بالتخلص من بقايا الانقلابيين والإعلان عن تنظيم جديد يشبه البرلمان الجامع أو اتحاد وطني يعبر عن وحدة الكيان القومي للبلد؛ وفق ما أعلن الرئيس في خطاب تزامن مع أعياد الثورة الأخيرة.

من بكين إلى تشنغتشو وهي المدينة التي تنتسب إليها فرقة الأكروبات الأشهر على مستوى الجمهورية الصينية، كانت الرحلة بالقطار ممتعة جدًا، ومعها لم تشعر سوسن بالتوتر الذي حاصرها في الطائرة، ربما ترتب الاختلاف عن الانتقال من الجو إلى الأرض، وربما عوامل نفسية أخرى، فقد أحست بأن عليها أن تمضي إلى النهاية فيما قررت فهي المسؤول الوحيد عن قرارها، وعليها أن تكون شجاعة بما يكفي.

وسط سهول ووديان وجبال خضراء سار القطار بسرعة متوسطة إلى أن دخل مقاطعة (خنان) حيث تقع مدينة تشنغتشو عاصمة الإقليم.

استقبلت المجموعة بشكل حافل، وسط جوقة موسيقية وأطفال حملوا أعلام صغيرة للسودان والصين، وكانت الساحة الصغيرة أمام مبنى فرقة تشنغتشو للأكروبات مغطاة بزهور ربيعية مختلفة الألوان تشعر من ينظر إليها بجمال المكان وكان الشيء الأكثر متعة وجاذبية أن نفوس الناس معبأة بالسرور الذي تسرب إلى أفراد المجموعة السودانية ومديرها دون أي حواجز وفي زمن وجيز، وتقدم رئيس الفرقة الصينية أمام الجوقة متحدثًا بلهجة عربية مكسرة عن عمق العلاقات الأخوية بين السودان والصين، خاصة في عهد الرئيس السوداني الجديد، ثم عكف على عالم الأكروبات وذكر أن فرقة الأكروبات السودانية الحالية يمكن أن توصف بزهرة العلاقات بين البلدين، باعتبار أن العلاقة شجرة كبيرة لها أغصان وفروع وجذور وزهور.

كان رئيس فرقة تشنغتشو لطيفًا للغاية، يكثر من الابتسام بنظراته الجميلة التي تستقطب كل عين تقف بجواره، وقد عرّف الجميع بشكل مضحك باسمه:

«اسمي (سو تشاو فو) ولدي خبرة نصف قرن مع الأكروبات، يعني خمسين سنة»

كانت عادته أن يقول الشيء ثم يشرحه بشكل مستفيض وكأن الذين من حوله لا يفهمون، لكن طريقته في الشرح تجعل من ثرثرته جذابة ومحبوبة. وذكر أن تاريخ الأكروبات في بلاده يرجع إلى ما قبل الميلاد وأوصى المجموعة أن تتحلى بالشاعرية، بوصفها السحر الذي يجعل لاعب الأكروبات ماهرًا وقادرًا على التفوق.

أما السيدة (شياجيوي) رئيسة الاتحاد الصيني للأكروبات فقد كانت صارمة بعكس رئيس الفرقة، وقدمت كلمات مقتضبة وحازمة عن أهمية الالتزام والسلوك الأخلاقي في نجاح لاعب الأكروبات، وقالت للمتدربين:

«من اليوم ولاحقًا انزعوا من قلوبكم الفوضى وانسوا بلادكم حتى تتعلموا بشكل جيد، وعندما ينتهي التدريب وتجتازوا الاختبارات وتعودوا إلى بلادكم مارسوا ما شئتم من الفوضى، أما هنا فلا نريد غير الجدّ»

غير أن السيدة شياجيوي اختتمت كلامها بابتسامة عريضة بدت كما لو أنها مصطنعة، وقد خلقت لدى الصغار مشاعر من الخوف، سرعان ما تبددت عندما علموا أنهم لن يشاهدوا

السيدة مرة أخرى إلا بعد نهاية التدريب في حفل الختام وتوزيع الشهادات، وأنها في ذاك الوقت ستكون مختلفة تمامًا وسيغير الجميع نظرتهم عنها.

أعدّ للفرقة السودانية سكن مكوّن من ثلاث غرف فقط وصالة واحدة في مساكن أعضاء الفرقة الصينية، وخصصت للمدير عمر الأزرق غرفة منفصلة لا تزيد مساحتها عن مساحة حمام، وفي البداية شعر الجميع بأن الأوضاع ستكون سيئة في المستقبل بسبب ضيق المكان والاختلافات الكثيرة التي ظهرت منذ اليوم الأول في المناخ والطعام وعادات الحياة.

ما أن بدّلت سوسن ملابسها حتى سمعت صوت صفارة التدريب، لتبدأ رحلة جديدة من حياتها ومنذ اللحظات الأولى فهمت أن الخيال يختلف عن الواقع بدرجة كبيرة، وأن ما يتصوره الإنسان من أحلام وبمجرد تحققه يكون قد فقد متعته، فمتعة أي رغبة تظل في غيابها أما مولد الرغبة وتحقق الحلم فيعني موت اللذة، ومن جديد انتابتها حالة الوجد والاشتياق والحزن على والدها الذي تركته وحيدًا وتخيلته جالسًا في هذا الصباح بمفرده في الحديقة، هل سيكون قادراً على النسيان وهل بإمكانه أن يفهم ما الذي حدث؟ أسئلة كثيرة عشعشت في ذهنها دون أن تنجح في صدّها.

لاحظت المدربة (ليو هوا) أن سوسن ليست على ما يرام، فأخذتها جانبًا واستعانت بمترجم الفرقة لتفهم ما الذي تعاني منه البنت. وما نقله المترجم لـ(ليو هوا) بالضبط:

«أنا خائفة ولا أعرف السبب!»

أدركت (ليو هوا) أن الحالة تستدعي تدخل الطبيب النفسي للفرقة، وبالفعل أخذت الفتاة إلى غرفة الطبيب، الذي قدم لها كوبًا ساخنًا من الشاي الأحمر في البداية وتركها تُكلّم نفسها سرًا لأكثر من عشر دقائق دون أن يهتم بها، قبل أن يبدأ في طرح الأسئلة عليها، مُركِّزًا على جوانب تتعلق بالنفسية التي من المفترض أن تتوافر لدى متدرب الأكروبات مع مراعاة عامل السن، فالطبيب كان خبيرًا بعمله جدًا، وقد عالج من قبل العشرات من حالات الخوف التي تنتاب المتدربين الصغار في الأيام الأولى، ليصبح الأمر مجرد ذكرى وطرفة في النهاية.

لكن أمام حالة سوسن يبدو الأمر كما لو كان معقدًا منذ السؤال الأول، فهي أولاً لا ترغب في الإجابة على أي سؤال، وثانيًا تدعيّ عدم الفهم، وثالثًا كان جسدها محاصرًا بالحمى، الأمر الذي استدعى نقلها إلى مستشفى المدينة بعد أن تعقدت حالتها في أقل من نصف ساعة، ولم يكن أمام الطبيب النفسي الذي يعتمد على مهاراته في سبر أغوار الذات الأخرى، من حل سوى اليقين بأن معاناة البنت عضوية وليست نفسية.

بعد يومين قضتهما في المستشفى استعادت سوسن عافيتها، وفي الطريق إلى مبنى الفرقة طلبت من عمر أن يسمح لها بالاتصال هاتفيًا بأسرتها في الخرطوم، ولأول مرة كادت أن تحكي كل شيء وتكشف عما يقلقها، لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة، واكتفت بالقول:

«لقد تركت والدي مريضًا ولن أكون في وضع طبيعي ما لم أطمئن عليه»

لم يكن من الصعب إجراء اتصال هاتفي، غير أن تعليمات الفرقة تنص باتصال واحد في الشهر باعتبار أن الاتصالات الهاتفية تعمل على تشتيت ذهن المتدرب.

شرح عمر لرئيس الفرقة الصينية الأمر فتفهم أن سوسن إذا لم تجر هذا الاتصال سوف ترتد إلى الحالة الأولى ولن تستطيع أن تركز في التمرينات اليومية، وقد كان من الضروري أن تستمر في التدريب، فجسدها وبناء على تعبير السيد (سو تشاو فو) «صمم من قبل الإله لتكون راقصة أكروبات لا غير»، قال هذا الشيء ربما لأنه لا يفهم شيئًا آخر في العالم غير هذا المجال، وربما لأنه أعجب بجسد الفتاة، وقد فطن عمر لذلك، دون أن يعلق أو يبدي امتعاضه، فالمهم الآن أن تكون سوسن في وضع مستقر حتى تبقى إلى جواره، وحتى لا تتسرب أحلامه في الفراغ، خاصة أنه

من أولئك النوع من البشر الذين لا يفرطون في رغباتهم بسهولة ويملك القدرة على مقاومة التعرجات والمطبات حتى يصل إلى مبتغاه.

رنّ الجرس أكثر من مرة دون أن يرد أحد على الجانب الآخر؛ كانت سماعة الهاتف في المنزل في الحجرة الكبيرة التي كانت تمثل مكتب والدها ذات يوم، ساعة كانت التجارة رائجة والحياة مفتوحة لأفق جميل، وبعد أن تعثرت الأحوال تحول المكتب المنزلي إلى مكان شبه مهجور، وظل التليفون في مكانه، وغالبًا ما كان صامتًا لا يرن فقد انقطعت الاتصالات من الجميع، حتى الأقارب والأصدقاء، الذين تغيروا فجأة ولم يعد يسمع لهم خبر.

سوسن كانت شبه متأكدة أن والدها لن يسمع الجرس، فهو في الغالب لا يمر بالحجرة التي تقع في منزل متسع، متعدد الغرف، فمجرد مروره بالقرب منها يذكره بأيام العز وهو ما سيحزنه كثيرًا، خاصة إذا عبرت بذهنه صور لمجموعة من الذين كانوا أصدقاء ذات يوم. وتعلم أن والدها ودود جدًا ولم يكن يتوقع أن ينفض عنه أقرب الناس طالما لم يبخل على أحد طوال تاريخ مجده وثرائه. ومن ثم عكست الفكرة بأن تخيلت أن ينتبه والدها إلى أنها من الممكن أن تتصل به ولهذا قد يكون جالسًا في الصالة الصغيرة القريبة من المكتب المهجور.

ذهبت تخيلاتها أدراج الرياح فقد استمرت محاولات الاتصال لأكثر من نصف ساعة، دون جدوى، الأمر الذي أقلقها وأقلق عمر بدرجة أكبر، وكان يتحرك خمس خطوات ويرجع ليعيدها مرة أخرى في الاتجاه المعاكس، وتقطر عرقه في مساء تشنغتشو قارس البرد. أخيرًا وضعت سوسن السماعة، ودون أن تفكر أو تشعر كانت قد سقطت على الأرض فاقدة للوعي في الشارع أمام كابينة الهاتف العام.

ارتبك عمر بشدة، وفي هذه المرة شعر بإحساس خفي يخبره بأن ثمة أمر ما غائب عنه، ولأنه كائن يعيش خلطًا بين الأحلام والواقع، عجز عن تفسير ما يحدث، وتوصل بما يشبه التفكير داخل حلم في منام عميق إلى أن هناك سرًا خطيرًا في حياة هذه الفتاة، وقاطع شكوكه بأن قال بصوت مسموع لنفسه:

«دعك من عالم الأحلام والرؤى الكذّابة فببساطة لا أحد بجوار التليفون والوضع الطبيعي أنها لم تحتمل الابتعاد عن الأسرة لأول مرة في حياتها»

ورغم أنه قال ذلك، كان داخله البعيد يتحرك بأفكار مضادة، لم يجد الوقت لتأملها لأن عليه أن يسرع لإنقاذ سوسن قبل أن ينالها مكروه لا قدر الله.

أسرع بالفعل إلى مكتب رئيس الفرقة فلم يجده حيث غادر إلى بيته فقد تأخر الليل، ولم يكن أحد من المسؤولين الصينيين الكبار بالفرقة متواجداً بالمكان، سوى المدربة (ليو هوا) في غرفتها الملاصقة لسكن المجموعة السودانية.

طرق الباب، خرجت (ليو هوا) بملابس النوم، ورغم أنها لا تحمل أي سمات جمالية، إلا أنها تظل امرأة، لا سيما أن ظلال الأشجار البعيدة جعلت جسدها يبدو كما لو أنه مطلي بالفضة.

كان ذهن عمر يفكر في أشياء متداخلة يدور معظمها عن سؤال الجسد، الذي جرّه للتعلق بسوسن، وأخريات من قبلها، لكن تجربته الحالية مع سوسو، كانت مختلفة منذ البداية ويبدو أنها مكتنزة بالمجهول المخيف، هكذا قدّر وسط ارتباكه وهو ينظر إلى جسد المدربة شبه العارية.

كان واضحًا أنه يرتجف وهو يكلم (ليو هوا)، غير أن المدربة بطريقتها البراغماتية في فهم الحياة فسرت المسألة بناء على الوضع الذي دخلته حالة سوسن، وما كان لها أن تذهب لأكثر من ذلك، مثلاً أن هذا الأفريقي الأسمر يفكر فيها، في لحظات لا تحتمل مثل هذا النوع من التفكير.

لبست ليو على عجل وأسرعت إلى إيقاظ صبي النظافة بالمبنى؛ والذي كان ينام في غرفة بجوار البوابة الرئيسية، وطلبت

منـه الإسـراع بدراجتـه الهوائيـة إلـى منـزل رئيـس الفرقـة الـذي يبعـد حوالـي كيلومتريـن لإخبـاره بـأن سوسـن فقـدت الوعـي وأنهـم في طريقهـم إلـى المستشـفى لكـي يقابلهـم هنـاك، وقـد قامـت بهـذا التصـرف بنـاء على التعليمـات الإداريـة التـي تقـول بـأن رئيـس الفرقـة يجـب أن يطلـع علـى الأمـور المعقـدة كهـذه الحالـة، فهـو المسـؤول الأول والأخيـر، كمـا أن ليـو لا تريـد أن تتحمـل أي مسـؤولية، فربمـا فقـدت البنـت حياتهـا وهنـا سـيتعقد الوضـع.

●●●

باروخ الابن جولدشتاين

كتبت: في ذات ليل سافر باروخ جولدشتاين - الذي هو أنا - عبر الصحراء من داخل مصر إلى حدود السودان مرورًا بواحد من أكبر أسواق أفريقيا للنخاسة في الماضي، تحديدًا في القرن التاسع عشر حيث كان العبيد يأتون بهم من جنوب البلاد ويباعون هنا، يعقدون عليهم المزادات أسوة بريش النعام وسن الفيل والمانجو المجفف وغيرها من الأغراض، والإبل طبعًا التي هي سيدة هذا السوق.

وقتذاك لم تكن الكاميرات الرقمية ولا العادية قد عرفت طبعًا ولهذا فإن الرسامين يأتون من فينة لأخرى من أوروبا لكي يقوموا برسم الناس.. الأثرياء يحبون هذا الطقس وكل يرغب بأن يرى صورته مثبته على مساحة بيضاء وحيث يعلقها في صالون بيته ويباهي بها، لأن هذه علامة على الوجاهة والثراء وأن صاحب الرسم إنسان يكون قد دفع فعليًا كثيرًا من المال.

كانت لجدي في بيتنا صورة أو رسم أو لوحة من هذا النوع يبدو فيها أنيقًا بهي الطلة وأكثر شبابًا، لابد أنها رسمت قبل مولدي بسنوات طويلة جدًا.

كان جدي ينظر إليها فيشعر بالفتنة أنه ما زال صالحًا للعيش، وكان ذلك في أيامه الأخيرة قبل أن يذهب عن هذا العالم البائس.

إلى يوم موته فقد وقف قصاد اللوحة وهو يشير إليها بقوة، أظنه كان يمارس نوعًا من الخرف أو الحنين باتجاه حياة يعرف أنها قد شارفت نهايتها في ذلك اليوم بالتحديد.. فبعد ساعتين رحل عن العالم وهو يشاهد الصيادين على ضفاف النهر يقودون مراكبهم عائدين في ضحى ذلك النهار.

كنا وقتها نسكن في بيتنا القديم بأمدرمان المدينة الغربية التي أنشأها مهدي الله قبل أن ترتحل العائلة إلى الخرطوم ونسكن في بيتنا الجديد شرقي الشارع المؤدي إلى قصر الحاكم العام البريطاني بشارع الجمهورية.

حتى لا انساق في حكايات طفولتي وجدي التي سوف أعود إليها لاحقًا، فقد كانت رحلتي للسودان عبر الصحراء في أواخر القرن العشرين ومطلع قرن جديد، حافلة بأمور كثيرة غير متوقعة بالنسبة لي أهمها أنني فقدت زوجتي في تلك الرحلة.

أتوقف هنا لأخبر نفسي أن بعضهم سوف يرجع إلى أن تسيبي ماتت هنا في يافا وقبرها يشير إلى ذلك، فكيف سوف أمحو التاريخ، بل سوف كيف أثبت أنني أنا ذهبت فعلاً في تلك

الفترة المشار إليها في تلك الرحلة، في حين أنني في اليوم الأول من القرن الجديد في الأول من يناير سنة ٢٠٠٠ ميلادية كنت أقدم سمنارًا في تل أبيب بفندق «دان بانوراما» وهو مكان محبب لي في ساعات صفائي الخاصة، حيث أجلس ببهو الفندق استجمع تفكيري واحتسي كوبًا من الشاي قبل أن أتمشي في الخارج مشيًا على القدمين حتى أصل إلى محطة السكة الحديد القديمة في يافا قريبا من تلك المنطقة.. وربما كان هذا السبب الحقيقي وراء تعلقي بالمكان، فالسكة حديد لا شك تذكرني بتلك الأيام القصية في الطفولة في الخرطوم، حيث لم يكن القطار بعيدًا عنّا بعد ان رحلنا لبيتنا الجديد، وكنت أيضا أتمشى وحدي وأحب التأمل إلى أن أصل محطة القطار وأراقبه وهو في رحلاته شمالاً وجنوبًا، وحيث أؤمن ويقال دائمًا أن الطفولة هي أساس تشكيل روح الكائن البشري، فكل تصرف أو اعتقاد أو شيء محبوب يعود في بعده الأساسي إلى تلك الأيام، إلى بذرة قد لا يبصرها المرء في اللحظة الحاضرة غير أنها قائمة هناك. كنت أطبق هذا المنهج في دراساتي على السياسة والتاريخ المعاصر، فالأمم هي الأخرى لها بذور في تاريخها تنعكس على راهنها مهما حاولت أن تدعي الحداثة أو تقول إنها منبتة عن الأمس.

قد لا يتذكر أي إنسان سواي أنني كنت في مطلع القرن الجديد في فندق «دان بانوراما»، لكن يوجد دائمًا صحفيون

يبعثرون الأمس بشدة ويبحثون عن الإخفاقات والاختلافات. أعرف هذه النوعية لاسيما لرجل مثير للجدل مثلي. وأي واحد من هذه النوعية سوف لن يسكت طبعًا وسوف يكتب أنني أزيف.

يعني هنا أنني أزيف حقيقة تاريخي الشخصي الذي أكتب عنه لأول مرة كتابًا؛ إذ سبق أن كتبت عشرات الكتب في السياسة والتاريخ المعاصر ودولة إسرائيل والقضايا التي أعرفها جيدًا، في حين كنت أبقي صورتي الأخرى وحياتي الشخصية، لي أنا.. أي الأشياء التي تتعلق بطفولتي وحياتي في بلد آخر وزوجتي الأولى والثانية وابنتي وابني وتفاصيلي الذاتية.

هذه الأمور التي لا يعرفها الناس عني أو هكذا افترض في حين يعرفون ما يدور في مقالاتي وكتبي أو يخال لهم ذلك عبر ما يطرحونه من تأويلات وأقاويل ووقائع موازية، وتفسيري البسيط لذلك أن كل الحجج قد تكون سليمة إذا كانت منطقية في راهنها.

طبعًا يوجد أناس قلة يعرفون عني أمور بدقة وأنا أثق فيهم مثل صديقي إسرائيل جولدمان الذي كان زميلاً شابًا في الخرطوم وقد سبقني إلى إسرائيل بسنوات قليلة، كان حظه في العالم والحياة أفضل مني، قد يكون السبب أنه بكّر في الوصول قبلي وربما أسباب أخرى تتعلق بمقادير إلهية بحتة. وربما لأنه ظلّ يفضل أن يعيش وحيدًا ويرفض الزواج من أي امرأة أو رجل

رغم علمي بميوله المثلية التي يحاول أن يخفيها عنّي، يتهرب منها لأنه يخدع نفسه ويظن أن معنى حياته في المال والمنصب والوجاهة التي سرعان ما يكتشف أنها أشياء فارغة بمجرد أن يواجه حقيقته على ما أظن ورغبته في حياة أخرى مفقودة لم يعشها، لكن الحياة مضت ولم تتوقف.

يأتي إسرائيل لزيارتي مرات ليست متباعدة لكنه لا يمكث طويلاً، وكانت تربطه صداقة مع بنيامين ربما يرى فيه شيء من الإغواء فمن الصراحة أن أفصح أن ابني وسيم ومثار إعجاب للكثير من الشابات أعرف ذلك جيدًا.

أفكر في ضحكات بنيامين الوقحة وهو يكلمني عن لعنة الخرطوم كما يصوّرها إسرائيل جولدمان فأتذكر أن ابني أذكي مني. الجيل الجديد الذي تربى هنا ليس لديه شروخ مثلنا نحن الذين عشنا خارج إسرائيل كل عمرنا إلى أن اكتشفنا في لحظة ما أن لدينا وطن آخر يمكن أن يحتوينا. كان بإمكاننا أن نعيش إلى الأبد في تلك البلدان ونحبها كما ينبغي وقد حدث، ثم مع الأيام قد يتحول الحب القديم إلى كراهية دون أن يكتشف المرء الأسباب الدافعة لذلك، مهما حاول. لأن الذات الإنسانية معقدة جدًا.

هذا المعنى كثيرًا ما كنت أحاول أن أوصله لتلاميذي في الجامعة، أن فهم السياسة يجب أن ينعزل عن المعاني المباشرة

للأشياء، فتصرف صغير في ذاكرة رئيس دولة قد تعود جذوره إلى لحظة قديمة في حياته، قد يغيّر مجرى حياة أمة. وقد كانت لي أمثلة عملية طبقتها في كتاباتي على هتلر وستالين وصدام حسين وعدوانيته باتجاه إسرائيل وتهديده بضربها بالنووي والسادات هذا الرجل الذي كان يعاني عقدة نقص ما والقذافي ذو الأصول اليهودية دون أن يعرف ذلك ربما، أو أنه حاول أخفاه لعقدة الدولة العبرية رغم أنه برأ نفسه منها كثيرًا.

يضحك بنيامين على ذلك اليهودي المثلي الذي يخشى أن يكتشف أمره، فكيف فهم ذلك؟

كانت تلميحات الصبي واضحة أنه يفهم كل الصورة بوضوح.. ولو أدرك جولدمان لشعر بالحرج الشديد أن أمره قد كشف. ذلك الحرج الذي كان قد أحسه ذات يوم في تلك المدينة الملعونة بالنسبة له لأنها كشفت سره.

بدأت أزمته كما أعرف تمامًا في سن مبكرة، كنا وقتها نفهم أمورنا حتى لو لم نحكي لبعضنا، كانت القصة تتداول لدى بعض أفراد الجالية سرًا مثل قصص مسلية في بعض الليالي، وفي الخرطوم تغويهم هذه الحكايات المتعلقة بالبعد الإنساني الآخر، حقيقة الهوية الجنسية للكائن وأشواقه أين يجد متعته الحقة. بعض الذين يمارسون هذه الأمور حتى مع صغار السن يتبجحون

بذلك مع أقرانهم وهم يتكلمون على أنهم شجعان في مواجهة نزواتهم وقادرين على القيام بها دون أي قيود عرقية أو طبقية، فمثل هذه الأمور في عرفهم تجتاز الحدود الفاصلة بين البشر في قضايا تراتبية أخرى في المجتمع، لهذا كان إسرائيل ينحشر تحت طاولة الطعام في بيتهم ليمسك بقضيب الخادم السوداني؛ ويبدأ في مصّه وهو يشعر بنشوة وفرح كبيرين أنه يقوم بعمل بطولي وربما كان يشعر بخيبة أمل لست أعلم بالضبط. من ثم يقوم الرجل الأسمر بباقي المهمة قبل أن يأتي أحد ليدخل البيت على عجالة، والعادة أن الجميع يكونون في الخارج.

إذا كانت البدايات مخيفة للصبي فسرعان ما ألف ذلك وأصبح ينتظر يوميًا الرجل الذي يأتي بجلبابه وعمامته يخلعهما في الغرفة المخصصة له في زاوية من حوش المنزل الخارجي، ثم يرتدي عراقي ومريلة من الدمورية المغبشة وطاقية تجعله أشبه بطباخ غير أن مهامه في البيت كثيرة جدًا، النظافة أولاً ومن ثم رشّ الحوش بالماء وتوضيب الغرف وفتح النوافذ لتمرير الهواء المنعش في الصباحات وغيرها من الأمور، والمهمة الأخرى أنه مكلف بمتابعة الصبي في غياب والديه دون أن يعلما أن الأمانة تمت خيانتها.

لاحقًا تم اكتشاف الفضيحة، فعالج السيد جولدمان الوالد الأمر بهدوء جدًا، دون أن يلجأ للانتقام المباشر بأن يقتل ابنه مثلاً. يمكن القول انه انتقم بطريقة بسيطة بأن أبعد الخادم واسمه مرسال عن العمل تمامًا ثم استغل علاقاته في الحكومة الإنجليزية بأن دبر له تهمة سرقة لدخول السجن.

●●●

سوسو

كما هو مقدر ومُسطّر في كتاب الأزل، كان على سوسن أن تتعافى بعد أن استمرت في حالة شدّ بين الموت والحياة لمدة أسبوعين كاملين تحت عناية طبية مركزة، وخلال تلك الفترة كان عمر في وضع غير مستقر، لا يدري هل هو خائف أم متوتر أم ما الذي يجري بالضبط؟ ولم يكن بإمكانه الاتصال بأهل سوسن لأنه لم يكن يعرف رقم الهاتف، ففي تلك الليلة سوسو هي التي اتصلت؛ وهي التي أعادت الاتصال أكثر من عشر مرات على الأقل قبل أن تفقد الوعي.

استقبلت سوسن الحياة بابتسامة غير مفتعلة، وكان أول وجه تلقى الابتسامة، وجه عمر الذي حاصره الاكتئاب، وقد بدا ذلك الشيء واضحًا بدرجة لا يمكن إنكارها. قال لسوسن:

«حمدًا لله على السلامة يا سوسو»

وضحك بعد أن تغيرت ملامح الوجه وأصبح أكثر طراوة وبهاء.

لم يكن لديه ما يقول، لكن سوسن كان لديها الكثير وسألته:

«ما الذي جري بالضبط؟ اشعر كما لو أنني كنت داخل حلم طويل جدًا»

لم يقل لها أنك كنت على مقربة من الموت، ووجد أن هذه الصيغة غير مناسبة على الإطلاق. ابتسم قائلاً:

«لقد كنت في سياحة جميلة بعيدًا عن هذا العالم، أعتقد أنك كنت داخل عالم آخر أكثر لطفًا»

لم يكن لدى سوسن رد محدد واكتفت بالقول:

«نعم»

ومن ثم واصلت أسئلتها:

«ما الذي جاء بي إلى هنا؟»

فهم عمر أن الأسئلة سوف تتواصل وأن على سوسن وهي في فترة النقاهة ألا تتكلم كثيرًا ولا تفكر وتغرق ذهنها في شوارد لا نهاية لها، لهذا قال لها بشكل حازم:

«غدًا سوف تعرفين كل شيء، لا تشغلي بالك الآن وفكري في صحتك»

لم تقتنع بشكل مباشر وطلبت الاتصال بوالدها مجددًا.

حاول عمر إقناعها بتأجيل الطلب. لم توافق وكانت عنيدة، واستجاب لها عندما أخذها في المساء إلى التليفون العمومي لتتصل على نفقته الخاصة هذه المرة، لم يكن يريد أن يزجّ رئيس الفرقة بطلب اتصال جديد.

في هذه المرة وبمجرد أن رفعت سوسن السماعة وأدارت الرقم المكون من الأرقام المحلية مع مفتاح السودان ٠٠٢٤٩، رد صوت كان مألوفًا بالنسبة لها إنه والدها، ولم تتمالك نفسها حيث صاحت:

«بابا أنا سوسن»

لم تستغرق المكالمة سوى دقيقتين فقط، فقد كان عمر يقف إلى جوارها وأي كلمات غير مضبوطة قد تقوده لفهم الخديعة، لا سيما أن والدها سألها:

«كيف سافرت بدون جواز، فلقد وجدت جواز سفرك في درج الدولاب الكبير بغرفة النوم؟!»

كيف سترد عليه، أي رد يعني أن عمر سيفهم، حدثت نفسها بهذا الشكل، ولكي تختصر الأمر قالت لوالدها:

«سأتصل لاحقًا؛ هناك أمر ضروري؛ سأنهي المكالمة الآن»

بعد الاتصال الذي لم يكتمل شعرت سوسن بتغير مفاجئ في حالتها وأنها أكثر حيوية ونشاطًا كما لو أنها عبأت بغازات منشطة من حبّ العالم، وقد فهمت أن السبب يتعلق بوالدها الذي تكلمت معه والذي تجاوب معها بشكل إيجابي بعكس ما كانت تتصور أن يبدو منزعجًا وغاضبًا، وشعرت بالسعادة أكثر عندما قال لها:

«إذا كان هذا قرارك فأمضي إلى النهاية وحتمًا سوف تحققين حلمك ذات يوم، وإياك أن تجعلي للقلق سيطرة عليك فأنا على ما يرام وراض عنك»

الرضا.. كانت تلك الكلمة الساحرة هي التي رسمت لسوسن عالمًا آخر غير الذي كانت ترى من قبل، ولأول مرة رأت معالم مدينة تشنغتشو من حولها بشكل مختلف، رأت سماءً صافية وهواء ربيعيًا عليلاً وورودًا ضاحكة في كل مكان، وقد أحس عمر بذلك وفهم بتقديره الذاتي أن المسألة متعلقة بنفسية طفلة لم تقدر على فراق الأهل، بينما كان تقدير سوسن يتركز على الإحساس برضا الوالد.

من ثم أخبرت سوسو مديرها عمر بأن عليها الاتصال بوالدها بشكل منفرد، قالت ذلك بطريقة مباشرة:

«هناك أسرار عائلية لا أرغب في أن يسمعها أحد غريب»

تفهم عمر الأمر ولم يمانع؛ وبالفعل أدارت قرص السماعة من جديد في الشارع العام وأجابها والدها:

«نعم أهلا سوسن»

هنا وجدت حريتها في حكاية ما حدث معها خلال أقل من شهر وقد فهم والدها أنها لن تستطيع أن تركز في التدريب ما لم تشعر بالاستقرار النفسي، فقال لها مؤكدًا ما ذكره في المكالمة الأولى:

«لا تحملي همًا بشأني، أنا أعرف كيف أدبر أموري وأدير حياتي ولن أوصيك أكثر من ذلك»

ها هو قد قال لها الآن ما طمأنها رغم أنه لم يودعها ساعة غادرت إلى المطار يوم سفرها، فقد كان غاضبًا وصرخ:

«هل كان من المهم أن تخبريني طالما اتخذت القرار بمفردك، أعتقد أنني الآن بلا فائدة طالما أصبحت لا أملك شيئًا»

وكانت قد خرجت وهي تعيد تكرار هذه العبارات طوال طريقها إلى مطار الخرطوم وهي تعاني أحاسيس متداخلة ما بين الخوف والوجع والرغبة في مغادرة العالم.

ما أن وضعت سوسن السماعة حتى شعرت بأنها قد استعادت عافيتها تمامًا وأن عليها أن تبدأ لعبتها التي جاءت من أجلها، تلك الحكاية التي بدأت قبل أقل من شهر عندما رأت فرقة الأكروبات السودانية على التلفزيون.

«من هذه اللحظة لا مجال لتبديد الوقت»، قالت لنفسها وكانت الصورة واضحة في ذهنها، تلك الفكرة التي لم تسر بها لأحد أبدًا ولن يحدث هذا، فالكلام عن السر يفسده ويرمي به في مزبلة الزمن ويعني ذلك ضياع الهدف.

كان عمر يسير إلى جوارها مثل صبي، وقد مضت عليه أيام طويلة منذ أن غادر الخرطوم وهو لم يعاشر أنثى أو يتذوق طعم أي مادة مسكرة. إحساسه بأن سوسن قد استعادت عافيتها أدخل فيه كلا الرغبتين، وقال لسوسن:

«ما رأيك أن تحتسي معي كأسين من الويسكي مساء اليوم؟»

وواصل يقول:

«تعلمين أنه محرم داخل سكن الفرقة، هذه من الشروط الأساسية، ولكن بالنسبة لي كمشرف على المجموعة لا توجد مشكلة»

فكرت سوسن هل ترفض طلبه أم لا. واتخذت القرار سريعًا:

«أوكي لا مانع»

وطمأنها:

«داخل غرفتي لا أحد سيكتشف الأمر»

غير أن سوسن كانت تفكر في أمر آخر يتعلق برفاقها في المجموعة السودانية، فقد يشكون في أن ثمة شيء ما غير مضبوط يربطها بمشرف الفرقة، وقالت تحدث نفسها سراً: «في الأيام الماضية كان على عمر أن يكون إلى جواري لأن ظروفي استدعت ذلك، أما بعدها فلا يمكن أن يُفهم الأمر».

عمر بذكائه أدرك ما تخشاه سوسن، فقال لها:

«لا تنزعجي أنا هنا المسؤول الأول ولن يقدر أحد بأن يفرض وصاية عليك»

لشخصية مناكفة مثل سوسن وهو ما لا يعرفه عمر فإن ذهنها الذي يبدو صغير الحجم، يتعامل مع الأفكار بسرعة وفي أكثر من خط. موافقة سوسن جاءت لأنها قررت أن تخلق تميزها على زملائها منذ اللحظة وبالأساليب التي تعمل على تقصير الطرق إلى الأهداف، وقد اكتسبت هذه المهارة من والدها منذ الصغر والذي كان يقول لها:

«إن الحياة يمكن أن تضع الإنسان أمام عدد من الطرق للوصول إلى الهدف، وعليه أن يختار الطريق الأقصر وأن يسلكه على عجل دون أن يفكر طويلاً في النتائج المحتملة، فضياع الوقت في التفكير يعني أنك لن تفعل شيئًا»

لم يكن والدها فيلسوفًا أو حكيمًا على الأقل، لكن خبراته في الحياة رغم الهزائم التي تعرض لها في السنوات الأخيرة تجعل كلامه يؤخذ بمنتهى الجدية، لاسيما لسوسن التي ورغم ما جرى مع والدها ما زالت تعتبره مثلها الأعلى.

صحيح أنها ناكفته وتحدته، غير أنها تدرك ومن خلال الاتصال الأخير به أنه في أعماق ذاته فخور بها، كونها أصبحت قادرة على شق طريقها في الحياة بمفردها، ربما لأن تلك كانت إحدى عقده في الدنيا؛ فقد وُلِد ليجد كل الأشياء سهلة وجاهزة أمامه.

كان محمد علي باشا.. باروخ.. بالفعل فخورًا بابنته الوحيدة التي توفيت والدتها مبكرًا لتتركها في سن الخامسة أمام رعاية والدها، وبعدها لم يتزوج محمد وتفرغ لتربية سوسن، ويعلم جيدًا أن كل القيم التي زرعها ورباها بها استطاعت أن تصل إلى أعماقها بهدوء، ولهذا كانت تصرفات ابنته مفهومة، وكان يتوقع منها أن تقدم على أية مغامرة غير مألوفة ذات يوم وهذا ما حدث عندما جاءت في صباح السفر حاملة حقيبتها لتقول:

«مع السلامة يا والدي أنا مسافرة إلى الصين»

كان يدرك كل شيء تقريبًا، غير أن الإدراك وحده لا يكفي لنفي عاطفة الأبوة، أن يرى ابنته الصغيرة تفرّ من أمامه هكذا، وبالمنطق فالأمر لا يحتمل، وقد تصرف باروخ بناء على العاطفة لا العقل الذي كان يعرف أسرار الوقائع.

وافقت على تلبية دعوة المشرف عمر وفي بالها أشياء لم تكن تخطر على باله، فرغم حصافته كانت ملذاته تنسيه التأمل

العميق. غير أن سوسن أسرت لنفسها بشكل جاد: «عليّ ألا أفرط في الثقة بذاتي، فمهما تصورت أنني ذكية وأنني ابنة لرجل علمني كيف أسير بحكمة ودراية إلا أن هذا لا يكفي، يجب الاحتياط والحذر».

كانت تفكر وتتعمق في الأفكار، وهما في طريقهما إلى مبنى الفرقة مشيًا على القدمين في طريق تمشي عليه سوسن لأول مرة؛ أما عمر فقد ألفه منذ سنوات بعيدة عندما جاء ليتعلم الأكروبات في تشنغتشو في تلك السنين البعيدة.

●●●

باروخ.. وإسرائيل جولدمان

إنه اليوم الأول من القرن الجديد، الأول من يناير سنة ٢٠٠٠ ميلادية داخل فندق «دان بانوراما»، في ذلك السمنار كنت قد تكلمت عن اتفاقية التجارة الحرة بين إسرائيل وتركيا التي أصبحت سارية مع مطلع أول يوم من القرن الجديد، كان هذا التاريخ قد تم اختياره بدقة، شرحت ذلك للحضور من رجال أعمال وسياسيين من الإسرائيليين والأتراك، وأوضحت أن تركيا تكلل اليوم علاقة وطيدة مع بلدنا بدأت في مارس ١٩٤٩ عندما كانت ثاني دولة ذات أغلبية مسلمة بعد إيران تعترف بدولة إسرائيل.

قلت لهم إن التاريخ يسير في بعض المرات بل في أغلبه مسارات غريبة، فإيران وإسرائيل صارتا من ألد الأعداء بعد قيام الجمهورية الإسلامية في طهران، في حين توطدت علاقة أنقرة وتل أبيب بل أننا أصبحنا مورداً رئيسيًا للسلاح إلى أنقرة.

تفاصيل كثيرة في ذهني عن ذلك اليوم وثقتها الصحف، والغالب أن الناس تنسى لاسيما في هذا العصر. لكن هل سينسون ساعة يقرأون كتابي؟

هل سيشير أحدهم إلى كذبتي؟

أنني أكتب عن رحلة وهمية لا وجود لها وعن زوجة ربما ماتت قبل تلك الرحلة أو بعدها!

سيقولون إنه مخرف.. وربما سيلعنون تاريخي ويسكبونه في الفراغ.. يبدو أن ذلك سيحدث، لكن لن أهتم، فيجب أن أمضي في كتابة مذكراتي إلى النهاية.. وإذا رغبت في التعديل خوف أن يقال هذا لم يحدث فليكن ذلك في المسودة الثانية من الكتاب والتي لا أدري هل سأعيش لحينها أم لا. فما يهمني الآن ما أشعر به حاليا وهو الرغبة التي يجب أشباعها فحسب، ما سوى ذلك لا يهمني.

انتهت المحاضرة كنت محاطًا بالمعجبين من تحليلاتي، وطبعًا لم أتطرق إلى الخرطوم ولو بكلمة واحدة. لم يحدث لي أبدًا أن أذكر أو ذكرت السودان في شؤوني العامة أو مقالاتي أو كتبي، وكأنني لا أعرف عنه أي شيء. ولا أدري بالضبط حجم الحرج الذي كان ينتابني إذا فعلت ذلك، وربما لا يوجد مبرر واضح يشرح ذلك اليوم.. ودائمًا ظلت لازمة تلك التعقيدات التي لا أفهمها بالضبط تطاردني فأجهل سبب شعوري بالذنب إن ذكرت اسم الخرطوم، كأن تلك المدينة جزء من خديعة كبيرة اسمها الحياة. ما أفهمه جيدًا أنه رغم ذلك لم يمرّ ربما ولو يوم واحد دون أن تعبر أطياف ذلك البلد البعيد في دماغي ومرات تطاردني في المنامات وتوقظني كوابيس أصارعها في شوارع الخرطوم القديمة.

أتذكر ذلك لأقصَّ الحكاية الواقعية التي حدثت في اليوم التالي.. فقد كتبت صحيفة «يديعوت أحرونوت» ما أثار اضطرابي أو أشعرني بقشعريرة لا يوجد تفسير لها سوى الخوف من أمر غامض، حتى لو بدأت في البداية مطمئنًا أنه ليس من أمر مزعج.

الصورة كما بدت في ذلك الصباح ومبكرًا جدًا قبل أن أذهب لمكتبي في مركز موشي أن رنّ جرس البيت، فإذا بإسرائيل أمامي كغير العادة، أن يأتي في هذا الوقت.

كان يحمل الجريدة معه، وضعها أمامي منزعجًا، ثم قال لي:

«اللعنة تطل مرة أخرى.. اقرأ ماذا يكتبون عني؟»

«عنك كـ.....»

كدت أن أقولها وشعرت بالحرج لكنني تمالكت نفسي؛ ومسكت لساني، ولم يكن من مشهد أوضح من ذلك ليفسر لصديقي أنني أعرف كل تاريخه بل أحفظه عن ظهر قلب.

تظاهرت بطريقتي الدبلوماسية أن الأمور على ما يرام، مهما حدث فإن الإنسان يمكنه أن يغير أسوأ المواقف والظروف.. تلك النظرية التي اعتقد بها وأصر على تدريسها لطلبتي في العلوم السياسية حتى يطبقونها إذا ما أصبحوا سياسيين كبارًا ذات يوم، فربما أشاروا لي وأنا في قبري وهذا يسعدني.. أقول لهم ذلك مازحًا وأنا أغادر قاعة الدرس.

لم ينتظر إسرائيل، قام بفتح الصفحة وعرضها أمامي:

«اقرأ هذا الهراء..»

لمعت عيناي وأنا اقرأ.. بجد كان الأمر في البداية عاديًا.. فالصحفي كتب عن المحاضرة بالفندق وعن العلاقات التجارية المرتقبة بين بلدين صديقين هما تركيا وإسرائيل.

لم يكن إسرائيل لينتظر كان قلقا وهو يشير بأصبعه في وسط الصفحة، ليختصر عليّ الوقت.. وهو يصيح بغضب:

«هنا يا أعمى»

أدركت أن عليّ أن أعدل نظارتي ليس لأنني لا أرى جيدًا بل كردة فعل تلقائية لفكرة أنني أعمى.

ذهبت عيناي إلى الوسط تمامًا فثمة مربع صغير مكتوب عليه ملخصًا لسيرتي كمحاضر، وكانت الإشارة التي أغضبت إسرائيل مفهومة لي الآن.

كتبت الصحيفة في تلك الفقرة:

«.. ومعروف أن الدكتور باروخ من مواليد السودان وقد قضى نصف حياته بالخرطوم قبل أن يصل إلى إسرائيل وسبقه صديقه رجل الأعمال المشهور إسرائيل جولدمان..»

ضحكت كثيرًا وأنا أطوي الصحيفة وأضعها على الطاولة، وقلت لصديقي:

«وما الذي يقلقك؟»

اشتط غضبًا وهو يجيب:

«الخرطوم.. هل كان من الضروري الزجّ بي في هذا المقال»

كان تحفظه مبالغًا فيه.. رغم علمي أن سيرة الخرطوم تشعره بالضيق الشديد. بالنسبة لي قد أنزعج نوعًا ما لكن ليس إلى هذه الدرجة التي أراها عند صديقي، فقد كان غاضبًا جدًا.

مع شيخوختي الآن وأنا أتذكر تلك الهنيهات الصباحية أقول إن الإنسان مع الوقت يشيخ فعلاً ليكتشف أن بعض تفاصيل الحياة التي تكون قاسية في أوانها تصبح بمرور الزمن ما هي إلا قصص مسلية ومضحكة مرات وربما يتخيل ذلك، فالشيخوخة هي إناء العجز وفي الوقت ذاته هي روح الإنسان المنهوبة التي تبحث عما ليس له وجود أساسًا.

طمأنت إسرائيل بأن لا يهتم فلا أحد يعرف بالجانب الخفي فيه، أو تاريخه السري في المدينة البعيدة.

شرحت له ذلك دون أن أفصح عنه مباشرة.

بدا الرجل في الارتياح. لكن ثمة سؤال كان يقلقه:

«ولكن لماذا أنا الذي يزج به دون أي شخص آخر؟»

قلت له:

«الأمر واضح لأنك تقريبًا صديقي الوحيد في هذا العالم.. أليس كذلك؟»

يبدو أنه لم يطمئن بعد بما يكفي، سألني:

«وما مغزى أن ترد سيرة الخرطوم في سيرتك ونادرًا ما يشار لذلك، بل أن تستخدم صيغة (معروف)، من متى كان ذلك؟!»

أطرقت قليلا أفكر في الأمر، ثم أجبت وأنا أشعر الآن بالانزعاج فعلا هذه المرة.. لأن التأكيد بكلمة «معروف» هو الذي يثير اللبس، قلت لإسرائيل ولكن دون قناعة كبيرة مني:

«لا شيء. ليس كل ما يحدث بالضرورة وراءه هدف إلا ربما للسياسيين فهم الذين يحاولون أن يضعوا لكل نتيجة سببًا مسبقًا.. وعلى العكس هذا من المفترض أن يكون عمل علماء الفيزياء والتطبيقيين، أما السياسية فهي علم مفتوح لكافة الاحتمالات وليس لها من منطق أبدًا»

وقف قبل أن يغادرني ليقول لي:

«هل تريدني أن تحاضرني عن السياسية.. أنا لا أفهم إلا في المال.. والتجارة.. أنت من يفهم في السياسة.. هذا كله لا يحل

المشكلة، تفكيري عن المغزى أو الهدف أمر بسيط وواضح لا يتطلب كل هذه الفلسفة»

وقفت أودعه، وهو يفتح الباب بنفسه، قلت له:

«أنت تفهم في السياسة وتمارسها كرجل أعمال.. وقد لا تدري.. لا تدعي الغباء في هذا الصباح.. وعلى أي حال لا تقلق كثيرًا فكل شيء سوف يكون على ما يرام»

ابتسم أخيرًا وهو يقول لي وهو قد بدأ ينشرح صدره في حين انقبض صدري:

«إنها لعنة تلك المدينة.. إلى اللقاء يا صديقي»

بدأت أفكر فعلاً عن السبب الذي يجعل هذا المحرر يزجّ بذكر الخرطوم في سيرتي، وهو أمر قلما حدث. كان بإمكاني أن أنسى أو لا أهتم بالموضوع، لكن سؤال إسرائيل عن المغزى كان مهما وحتى لو حاولت أن أقدم له إجابة فهي تبدو لي غير مقنعة الآن بعد خروجه.

بدأ رأسي يدور، هل من هدف معين وراء ذلك؟

هل من جهة ما تغرر بي وأنا لا أدري، ومن هي بالضبط؟

ولماذا في هذا التوقيت بالذات يعاد إنتاج سيرة الخرطوم لي أنا وإسرائيل؟

لقد حاولت إقناعه ولكن يبدو أنني عاجز عن إقناع نفسي أولاً.

وانا استعيد تلك الأيام، كان لي أن أفهم ربما السبب الذي يجعل رحلتي إلى صحراء السودان ترتبط بتاريخ الأول من يناير ٢٠٠٠ فهو اليوم الذي بدأت فيه إسرائيل كلها تشير ربما بشكل واضح إلى أن وراء المحلل السياسي والمفكر التاريخي المعروف باروخ جولدشتاين تاريخ آخر يجب اكتشافه، بعدها انهمرت المقالات وان كنت متقطعة قليلاً تفصح عن حياتي الثانية في السودان وأجريت معي أول مقابلة صحفية وافقت عليها دون تردد حتى أزيح أي التباس ممكن حصوله، فلست كإسرائيل متحرجًا من ذكر الخرطوم حتى لو لم تكن واردة في الماضي كثيرًا بجواري، وكنت أفعل ذلك، أي أجري الحوار، متجاهلاً أي تعقيد يمكن أن يرد لذهني أو عقد شخصية بخصوص حياتي القديمة في تلك المدينة الغارقة في الأمس.

كان إسرائيل بخلافي، قد أعلمني أنه أعتذر عن أكثر من مقابلة صحفية، كما أعتذر عن تسجيل فيلم وثائقي عن يهود السودان كان يقوم عليه شاب أثيوبي من اليهود الفلاشا الذين وصلوا إلى إسرائيل في العملية السرية الشهيرة في سنة ١٩٨٤ من الخرطوم مباشرة وبدعم من الرئيس السوداني الأسبق جعفر النميري.

●●●

عمر الأزرق

لم تتغير المعالم على جانبي الشارع الطويل المرصوف بالحجر والمحفوف بالأشجار، لكن نفوس الشعب الصيني في تقدير عمر أصبحت أكثر قسوة مما كانت عليه في الماضي، لقد غزتهم قيم الغرب وحولتهم لكائنات شغلها الشاغل الذات والمال غسلت عنهم القيم الكونفوشيوسية التي تدعو لاحترام الذات الجمعية، وتأكيد الـ (رن) أي الطيبة والإنسانية.

في رحلته المبكرة إلى الصين، إلى هذه المدينة بالتحديد، تشنغتشو، وفي أول درس فهم عمر من المدرس الصيني في قاعة الدرس أن لاعب الأكروبات الناجح يجب أن يحرر روحه أولا لأن الجسد لا يتحرر ولا يكون طليقًا وخفيفًا إلا بمولد الروح الجديدة، ولا يستطيع عمر أن يحصي من الوهلة الأولى كم عدد السنوات التي مضت منذ ذلك اليوم الذي يبدو في الذاكرة كما لو أنه حلم، كما لا يستطيع أن يقدر بشكل جيد أنه قد حرر روحه تمامًا، فقد فشل في أن يصبح لاعب أكروبات رغم أنه أصبح مدير الفرقة السودانية الوحيدة للأكروبات.

بتأمل ما حققه من إنجازات وبتفكير صادق مع الذات، يدرك أن السبب وراء نجاحه في الحياة لا يعزى إلى تحرير الروح، بقدر ما يعود إلى جسد مثقل بالشهوات التي لا تنتهي، وهو أمر يضاد الفكرة السائدة، له أن يفهمه دون أن يشرحه أو يفسره لأحد، لأنه ليس له من منطق عقلاني، ولهذا السبب بالتحديد فإن الكثير من الفلسفات والمعاني العميقة في الحياة لا تكون حقيقية.

فكّر عمر بهذا الشكل وهو يمشي متثاقل الخطى تحت الأشجار، التي فقد الإحساس بظلالها فجأة وبلا مقدمات.

عبر رحلة بدأت في تشنغتشو ورسمت دروبها في العديد من مدن العالم واستقرت في أمدرمان على ضفاف غرب النيل، استطاع عمر أن يحقق الكثير من المنجزات، لكنه لا يراها في هذه اللحظة، يحس أن البداية لم تأت بعد، وأن الحياة لا تزال مفتوحة للتكهن والاحتمالات الغريبة.

قبل يومين من القبض على الفتاة التي حلم بها في خياله الوثاب، كان قد انتهى من كتابة سيناريو لفيلم جديد عن الأكروبات، ويعلم جيدًا أن مصيره درج المكتب، مثل عشرات السيناريوهات التي كتبها من قبل. لقد كان في طفولته يحلم بأن يكون مخرجًا سينمائيًا، لن يقول إنه فشل في تحقيق الحلم، لأن التوصيف الجيد للحياة لا يقوم على هذه الأحكام القاطعة. الدقة تستدعي القول إن موهبته الكامنة في لاوعيه وفي ذاته الباطنة كانت تتعلق بشيء

آخر بتفكيك تلك العلاقة الغريبة بين الجسد والروح والوصول إلى ما يسميه العلماء برؤية (ميكانيكية الجسد الثري).

كان عمر ومن خلال اللعب بالجسد يسعى لأن يفهم أجساد الآخرين، الأنثى تحديدًا، ما هي تلك البؤر الخفية التي تشع بالنور والسحر؟ وكيف عمل الخالق على إبداع هذا الثراء في كتلة محدودة تشغل جزء من فراغ الوجود، بحيث تكون هذه الكتلة نابضة بالحياة والحركة والانسيابية الساحرة، ولو لم يدرس فن الأكروبات لما (اقترب) من المعنى. هنا أيضا يكون التوصيف الدقيق هو (الاقتراب) لأن الأحكام النهائية لا يمكن الوصول إليها في عالم لم يكتمل بعد.

يقال اختصارًا عن ميكانيكية الجسد الثري بأنه علم (البايوميكانيك) أي ذلك العلم الذي يجمع بين دراسة الجانب البيولوجي (الحيوي) والجانب الميكانيكي (الحركي) أو هو علم دراسة السلوك الحركي عند الكائن الحي، سواء كان إنسانًا أم فراشة أم كائنًا صغيرًا جدًا على هيئة الأميبا اللامرئية بالعين المجردة. وقد ظل عمر ينتظر ذلك الجسد القادر على حمل التطبيق المثالي للجسد الثري، ولم يوفق في هذا الشيء إلى أن وجد سوسن، التي هبطت إليه من السماء لتغير الكثير من أفكاره وما تعلمه وخبره في رحلاته الكثيفة التي بدأت في تشنغتشو.

يعلم عمر أن المشكلة التي دائمًا ما تواجهه أن الإحساس بالشيء لا يكفي فالعبرة بالوصول إلى عمق الحالة والإنجاز، وقد ظلت هذه المشكلة تؤرقه طويلاً، وفيما يختص بسوسن فإن الأرق سوف يزداد لأنها من النوع الذي يعجز الدارس أمامه عن البداية السهلة، بالقبض على المفصل الذي ينطلق منه إلى العمق. وكان عليه أن يتخلص من أمر آخر، كان يدركه جيدًا وهو الفصل بين الشهوانية والروحانية في ذاته بخصوص العلاقة مع سوسن، لأن أي تفكير شهواني يتمثل في فكرة الحب المجرد على النمط الحيواني يعني أن محاولاته لتطبيق نظريات جديدة على ثراء جسد سوسن سوف تمحق منذ المقدمات. وأمام هذه المعاناة بين المضي قدمًا في الرغبة المتعالية (متمثلة في البحث عن أسرار الجسد الحر) والرغبة الدونية (تلخيص الجسد واختزاله في قيد الحب والشهوانية) كان على عمر أن يتأزم بدرجات متفاوتة وأن يقع في نوبات من الحيرة، وكان سؤاله الدائم: «ما هي الخطوة القادمة، وما الذي ينبغي عليّ أن أفعله؟»، وأحيانًا يكون السؤال خارج حدود هذا العالم: «أي سبب دفعك لملاحقة هذه الفتاة وأن تتخذ علاقتك معها شكل الشدّ والجذب؟ وهل ما تدعيه من طهر في بعض المرات يمثل حقيقة باحث مجد في علم (البايوميكانيك) أم أنك تلتف على رغباتك وشهواتك المباشرة؟».

شعر عمر وهو يسكب كأسًا من الويسكي كما لو أن سوسن تجلس أمامه، على الرغم من انها فارقت الغرفة الصغيرة قبل خمس دقائق، وقد مضت أكثر من ساعة ونصف وهي تجلس معه وكأنها أقل من ثانية، أم أنه تخيل ذلك؛ فحسب؟ فيما يتعلق بكم مكثت ومتى غادرت؟

لم يهتم بالبحث في جدلية الزمن والإحساس به، لأن الخمرة التي اشتغلت في رأسه المزدحم بالأفكار أخذته إلى مواقع جديدة من عوالم لم يدخلها من قبل في دائرة علم (البايوميكانيك).

في الماضي وإلى ما قبل ثوانٍ، أعتقد عمر أن أفكار الإنسان لا يمكن التعبير عنها إلا بواسطة الكلام وحركة الجسد، ولهذا يكون (الجسد الثري) هو ذلك المضبوط والدقيق والبارع في إظهار الأفكار التي تجسده، لكن بعد أن غادرت سوسن إلى غرفتها فقد زاحمته فكرة صغيرة لا يعرف أن كانت ستكبر أم لا، ملخصها أن هناك شيء ما، ما وراء الجسد في توصيل المعاني، ولا يتعلق ذلك بما يطلق عليه البعض الكاريزما أو هالة الروح التي تفيض في المكان فتغمر كل من يتواجد فيه، أبدًا. فما وراء الجسد وفي تقدير رأس مشحونة بالويسكي هو نور غريب يدخل قبل الفرد إلى المكان ويظل إلى ما بعد مغادرته، مثل النور الذي تركته سوسن ليدل على وجودها وهي ليست هنا، كذلك الله دلنّا على وجوده بنوره في السماوات والأرض، هذا النور هو

أبلغ تعبير يتجاوز الهيئات والكتل والكلام، ومعه يتحول الكلام إلى نور، كذلك الجسد، وهو نور يضع أثره في المكان إلى الأبد، ولا يكون حضور المكان والزمان إلا به.

في الدروس الأولى من فن الأكروبات، وفي الجانب النظري، يستمع المتدربون إلى قصة ترويها المدربة (ليو هوا) بطريقة عادية، دون أن تغوص في المعاني المستترة للقصة، ذات القصة تُروى منذ مئات السنين، يفكر فيها عمر الآن ويفكر هل تم تأويلها بناء على مغزى غير مباشر كالذي يدور برأسه الآن؟!

عندما سمع القصة لأول مرة وهو في ريعان الشباب لم يكن يدرك أبعادها، وليس متأكدًا هل المعاني التي توصل إليها الآن ذات علاقة بمغزى القصة أم أن الأمر لا يعدو مجرد نوع من التوهيم للذات؟!

القصة في الأساس هي أسطورة صينية قديمة، كانت شائعة لدى قومية (داي) وانتشرت لاحقًا في كل بقاع الصين، وتقول القصة:

«إن مجموعة من البنات كن يلعبن في ليلة عيد البدر بجوار النهر، وكانت لدى كل واحدة منهن رغبة خفية في القبض على القمر، وإذا كان من المستحيل الوصول إلى القمر وملامسته باليد؛ فإن القمر موجود على سطح الماء، لهذا سوف تجرب البنات النزول إلى ماء النهر البارد في محاولة لملامسة القمر في أجواء

شاعرية، صحيح أنهن لن يتمكن من ملامسة شيء محسوس لكن مجرد الإحساس بأن الإنسان يقترب من تحقيق الحلم يجعله يشعر بالسعادة والحيوية»

هذه القصة ترجمت إلى جزء من أوبرا تقوم على توظيف الأكروبات، بناء على أفكار المخرجة الصينية (لي شي نينغ) المتخصصة في مجال إخراج أعمال أوبرالية قائمة على الأكروبات وكان عنوان العمل (الوشاح الحريري).

يتذكر عمر أنه شاهد العرض أكثر من مرة، ومع كل مرة كان يفهم المزيد من المعاني الغائبة، الآن يفهم أن ثمة علاقة ما، بين فكرة النور الماورائي الذي يشغل المكان وهذه القصة، وعليه أن يفكر بدرجة أعمق ليصل إلى هذه العلاقة.

دائمًا كان يبدأ الأفكار ويصنع النظريات الجديدة، لكنه نادرًا ما يكمل الفكرة ويستخرج منها شيئًا جديدًا وكثير من أفكاره كانت تتلاشى مع تلاشي تأثير الخمرة، غير أن ما انتابه من شعور في هذه الليل كان مختلفًا عن مشاعر الماضي، فمع سوسن كانت الأفكار تتخذ منحى آخر، وحدثته نفسه أن ثمة أشياء مهمة سوف تتبلور خلال عام ونصف أو أقل، خلال مدة تدريب المجموعة، وقبل انتهاء المدة يجب أن يكون قد خلص إلى هذه الأشياء المهمة.

اختلطت تلك الأشياء المتوقعة والمنتظرة، بالمعاني المستترة، بالأفكار المتزاحمة في الذهن، ولم تمض سوى لحظات قليلة حتى استغرق عمر في نوم عميق رأى فيه أحلامًا جميلة، لم يحدد ما هي بالضبط عندما استيقظ في السابعة صباحًا.

●●●

جيمي

في العادة يشيخ الكلب في الثامنة من عمره.. فالوقت ما زال مبكرًا بالنسبة لي فأنا لم أتجاوز الثالثة إلا بأيام قليلة. اشتاق لأشياء كثيرة كانت تحدث قبل سفر بنيامين.. صحيح أنه لا يحب الكلاب غير أن مجرد وجوده في البيت يعطي إحساسًا بمزيج من الحنين المفقود.. فأنا أعيش بروح جدي.. نحن الكلاب نتناسل الأرواح.. يموت الواحد فينا فتتلبسه روح جده ونظلّ نفعل هذا الشيء إلى الأزل. ليس لنا تحكم فيه، هو مشيئة الرب الذي خلقنا هكذا. وليس لنا من دين محدد. نحن نعرف الله فحسب.

سبب ذلك الحنين متعلق بشباب سيدي باروخ فهو إلى حد ما لا يمكن لروح جدي التي أعيش بها أن تتذكر جيدًا، يشبه ابنه بنيامين الآن في تصرفاته. الأناقة.. عشق الحياة والتأمل في بعض الأمور التي قد لا تبدو مهمة للناس العاديين.

عائلة باروخ أناس استثنائيين ونحن نعرف ذلك جيدًا. على الرغم من أنه يمكن لأي كلب آخر يتربى في عائلة أخرى أن يقول ذات الشيء عن أسياده، فالكلاب كما يقول عنها البشر تحفظ الود ولا تنسى أهلها أبدًا.

يوم سافر بنيامين مسح على ذيلي وربت على عنقي.. وهمس بأذني كلمات فهمتها جيداً. إذ يمكن لي أن أميز المعنى مرات كثيرة دون أن أقدر على الرد.. يمكن أن أفصح بأنه أوصاني بأبيه.. اهتم به إنه عجوز قد يفقد حياته في أي لحظة. لا يوجد غيرك يا جيمي ليضع عينيه عليه، قال ذلك برغم أنه لم يكن ليهتم بي من قبل.

مرة شاهدت فيلماً في التلفزيون.. كان بنيامين جالساً في غرفته يشاهد الفيلم وأنا على الأريكة الخشبية التي بها وردة لا أعرف من جاء بها، اعتقد أنها هدية لبنيامين من أحد عشيقاته السريات.. لم يخبر باباه بذلك بعد.. وليس من مشكلة.. لكن ذلك يتكرر في عائلة باروخ يمارسون العشق سراً.. حدث ذلك مع الأب ويتكرر مع الابن.. مع بنيامين الذي استغرق في المشاهد الحميمة بالفيلم.. وأنا نفسي ذبت ونسيت نفسي.. كنت شبه نعسان لكنني قاومت نعاسي لأرى نهاية الفيلم.. الصور وحدها كفيلة بأن تمنحني معنى لحياتي القصيرة.. ولولا الأرواح التي نتبادلها أو نتوارثها لكان الأمر محبطاً جداً.

في الفيلم توجد سيدة متقدمة السن على وشك الموت، ولم يكن معها سوى كلب وفي النهاية.. يكون لهذا الكائن الذي ينتمي لذريتنا أن ينقذها من الموت.. بعد أن تقع على السلم.. مشهد

دائما ما يتكرر في الأفلام.. لم يبذل المخرج جهدًا ليخترع طريقة أخرى.. لست كلبًا ذكيًا لابتكر طريقة بديلة.. لكنني فكرت في ذلك فحسب. يمكن لبنيامين أن يتصور ذلك مع والده. فهو كائن مفرط الحساسية رغم قلبه القاسي.. وهما أمران متضادان في هذا الشاب العجيب. وهذه الطبائع نعرفها جيدًا عن عائلته.. أرواحنا تعودت على ذلك. هم أناس يذرفون الدموع لأوهن الأسباب وقد يكونون كائنات تدميرية في لحظات أخرى.

في هذا الصباح ما يزال سيدي مستيقظًا، لا أعرف ماذا يقول لنفسه إنه يتمتم، كأنه يتكلم عن تلك المدينة التي كان فيها ذات يوم.. روح جدي التي تسكنني تتذكر ذلك.. ترى كل شيء.. تتعرف على البيت الذي سكنته الأسرة حديثًا هناك في الخرطوم شرقي الكنيس، وحيث أنه في الليالي التي يتوقف فيها المطر مبكرًا يذهب الأب باروخ إلى الصلاة في العادة وحده ومرات يأخذ معه ابنه محمد علي.

يعيش باروخ الأب أحيانًا خلوات ذاتية لا أعرف سببها - أقصد جدي لا يعرف - يشعر بأنه ابن الله وعليه أن يكون قريبًا من أبيه.. وقضية الدين في العائلة هي الأخرى لا أفهمها جيدًا فهي تشهد تقلبات وغير واضحة ما بين الإسلام واليهودية.. وهذا ما تراه روح جدي من تعقيد، كما أراه أنا الآن.

ذهب جدي الكلب جيمي إلى الكنيس برفقة باروخ الأب، لكن عليه عندما يصلان إلى هناك، أن ينتظر في الخارج في صالة صغيرة خلف المبنى الرئيسي غير مسموح للكلاب بالدخول.

في الطريق كان المطر قد بدأ في الهطول بغزارة، حيث أصبح الشارع القصير طويلاً، ولم يكن ثمة أناس سوى رجل يقف بعيدًا يحمل مظلة يبدو أنه أحد الإنجليز كبار السن الذين يستمتعون برؤية المطر.. سلّم عليه باروخ من بعيد فهو إذن يعرفه؛ رغم أنه لم يسبق لي أن رأيته من قبل. وهذا ليس ضروريًا.. فعائلة باروخ يعرفون الكثير من البشر في هذه المدينة، بالأحرى الجميع يعرفونهم.

مشينا إلى أن أدركنا الكنيس، كان الباب مغلقًا، وكان هناك قط يجلس على ناصية أحد الأبواب لا يحترم أن هذا مكان عبادة.

أنا أعرف أن القطط محترمة في أمور النظافة فلا مشكلة إذن. ثم خجلت من قلبي الذي لا يحترم الكائنات الأخرى اللطيفة.. تاريخيًا لو حدث تزاوج أو نسب بيننا والقطط لكان ثمة مخلوقات غريبة يمكن لي أن أتصورها. ويمكن لباروخ الأبن أن يخترعها في دماغه أعرف أنه مهموم بمثل هذه الأمور مرات. لديه قدرات خارقة على أن يفهم الحيوانات دون أن يوظف هذا في عمل مفيد. الحياة أخذته لاتجاه آخر وهي دائمًا تفعل هذا الشيء. كما حدث مع جدي.

الـكلاب في العـادة لا تعمـر كثيـرًا كالبشـر، لهـذا فـإن ثمانـي سـنوات لكلب تعـادل مائـة سـنة لبنـي آدم.. الغريب أن هـذا السـنوات تكون عامـرة ومشـغولة بالكثيـر مـن الأمنيـات والآمـال. يمكـن للكلـب أن يفعـل كل شـيء.. ويكـون سـعيدًا.. يعيـش الحيـاة علـى علاتهـا.. يفـرح ويمـرح أو يبكـي كثيـرًا.. جـدي عـاش الحيـاة بعرضهـا وطولهـا كمـا يقـال.. رمم ذكريـات قاسـية ولوعـات ومـات فجـأة تـاركًا بقيـة مـن الأحـلام التـي لـم تكتمـل؛ إذ ذات ليلـة كان رجـل يلبـس رداءً قصيـرًا وقميصًـا بنصـف كمّ قـد صـوب بندقيتـه باتجـاه جـدي فـأرداه قتيـلاً في الشـارع الخلفـي للكنيـس.. مـات جـدي.

سـأحزن عليـه الآن مـن خـلال روحـه. ثـم أبكـي ولا أحـد سـوف يفهـم ذلـك سـواي. يمكـن لبـاروخ أن يشـاهدني وأنـا أنفـض شـعري لسـبب غيـر مفهـوم بالنسـبة لـه. إنـه إحساسـي بالرهبـة مـن المـوت. نعـم أخـاف المـوت. وبـدلاً مـن خـوفي علـى مـوت سـيدي بـاروخ العجـوز. كنـت أكلـم نفسـي أن المـوت قـد يصيبنـي أولاً.

في ذلـك العـام انتشـر داء السـعر في الخرطـوم، قتلـت عشـرات الـكلاب. ربمـا المئـات ليـس لـروح جـدي أن تحـدد بالضبـط، وهـي تصعـد إلـى جهـة مجهولـة في انتظـار جسـد كلـب جديـد تحـل فيـه. وهـي اليـوم تتذكـر مـن خلالـي أن السـعر لـم يصـب جـدي، لهـذا فالكثيـر مـن الـكلاب ماتـت بـلا ذنـب. يحـدث ذلـك عاديًـا، فسـاعة

تبدأ هوجة رجال الشرطة المكلفين من قبل المفتش الإنجليزي بقتل الكلاب فهم لا يتورعون، يقومون بمطارداتها من زقاق لزقاق.. وهم يفعلون ذلك بحبور عميق. لا يمكن لي أن أفهم سببه.

في تل أبيب قلّ معدل السعر.. فالعناية الطبية أو البيطرانية بالكلاب أفضل كثيرًا مما كانت في تلك الأيام بالخرطوم، رغم أن الإنجليز حاولوا أن يدخلوا ثقافة البيطرة بعمق في السودان إلا أن التجاوب من الأهالي كان صعبًا في البدايات. مرات تأخذ القيم الجديدة سنوات كثيرة ليكون لها أن تتغرس لدى الناس. عفوًا ليس لكلب أن يعرف كل ذلك.. لكنني سمعت باروخ مرة يتحدث مع إسرائيل حول أمور كهذه.

كانا يتحدثان عن صحتي، فقد كنت أشعر برجفة لم يعرف مبررها، وتقيأت كثيرًا وأسهلت حتى ظن باروخ أنها النهاية، وكانا يتكلمان هو وإسرائيل عما اسمياه موت الرحمة.. الذي يقاد إليه الكلب ساعة يكون اليأس من الشفاء. غير أني شفيت ولم يكن ثمة سبب واضح، حتى أن باروخ تأخر أن يحملني إلى طبيب بيطري. كان لا يزال متعودًا على تصرفات شبابه يوم كان يربي جدي، وتركه يموت أمام عينيه برصاص رجل متهور عاشق للموت.

من يحمل بندقية ليقتل كلبًا مسكينًا لا يختلف عندي عمّن يحمل البندقية نفسها ليقتل إنسانًا، فنحن كائنات ولنا حق في

الحياة، ومن الأجدر أن يتأكدوا أن جدي كان مصابًا قبل أن يقضوا عليه.

هل يرضى البشر أن يبادوا جماعات بحجة أن الطاعون ذلك المرض القاتل قد أصاب مدينة ما؟!

الحجة في قضية الكلاب إنهم يخافون على مستقبلهم كبشر لا مستقبلنا ككلاب. وفي الطاعون يظلون مثابرين إلى اللحظة الأخيرة في انتظار أن يكون الشفاء. أن تحدث المعجزات.. مثلما شفيت.

●●●

سوسو

مضت أيام سوسن مع فرقة تشنغتشو وسط زخم التدريبات المتواصلة من الصباح حتى المساء، وكانت تتدرب على أداء الحركات بشكل يتكرر مئات بل آلاف المرات، وفي إحدى المرات أصيبت في رسغ قدمها، غير أنها ضمدت الجرح ونهضت تواصل التدريب وكأنها لم تصب أبدًا، فقد أصبح عالم الأكروبات دنياها الأولى والأخيرة ومتعتها التي لا تدانى؛ وإلى جانب التدريبات، كانت تدرس اللغة الصينية أملاً في تواصل أفضل مع المدربين الذين لديهم الكثير مما يمكن قوله، والذي لا توصله كلمات المترجم المقتضبة.

تنهض من نومها في السادسة صباحًا كل يوم وتتجه إلى قاعة التدريب لتؤدي المقرر التدريبي، وقد فهمت جيدًا أن النجاح في الأداء لدقيقة واحدة على المسرح يحتاج تدريبًا وخبرة قد تستمر لعشر سنوات، هذا ما تفيد به نظريات فن الأكروبات، غير أن من طبيعة كل ذهن بشري أن يخترع نظرياته الخاصة والتي تمكنه من إنجاز الأشياء وبسهولة، هذه واحدة من طبائع العالم والبشر؛ والتي فهمتها سوسن من المخرجة الصينية (لي شي نينغ) التي زارت الفرقة ذات صباح لتحكي عن تجربتها في عمل (الوشاح الحريري)، حيث تحدثت عن الأوبرا الأكروباتية قائلة:

«الوشاح الحريري عرض أكروبات يشمل سلسلة من الحركات البهلوانية في الفضاء، علمًا بأنه أثناء تقديم هذا العرض رسميًا لا تكون هناك إجراءات للسلامة، وعلى اللاعبين إجادة كافة الحركات بمهارة بالغة تجنبًا لحدوث الإصابات من زلات الحركات»

تتنفس بعمق ثم تواصل الدرس:

«إنها عملية شاقة تستلزم من هؤلاء الصغار تدريبًا وعرقًا كل يوم»

قبل يومين من حضور المخرجة، كانت سوسن وكعادتها قد استعدت جيدًا للزيارة، واستعانت بعمر الأزرق في الحصول على بعض الإصدارات من مكتبة الفرقة، كان من بينها مجلة «الصين اليوم» والتي تصدر باللغة العربية في نسخة يتم تحريرها بالقاهرة. وقد قرأت في أحد الأعداد مقالاً مطولاً عن (لي شي نينغ) لتفهم أن (لي) متمكنة من عملها بدرجة مميزة وخلال السنوات الأخيرة فازت برامجها مثل (الباليه على المصابيح) و(وانغ دياو) بجوائز في مسابقات دولية للأكروبات.

ظلت سوسن تواصل القراءة بشغف كبير يجعلها تحس كما لو أنها هذه المخرجة، وفي هذه اللحظات بالذات وهي تجلس في أحد الأركان من مبنى المكتبة الصغيرة الحجم، استعادت ذلك اليوم الذي فكرت فيه استعارة جسدها ليكون دليلها إلى العالم. الآن

تأتي الفكرة بشكل مختلف، من خلال ما عرفته سوسن عن (لي) التي استطاعت أن تصل إلى حلمها من خلال عالم الأكروبات، بعد أن فهمت طبيعة الجسد البشري بذكاء خارق.

في الصباح شعرت سوسن بنشوة فائضة سببها الانتظار للقاء (لي)، التي دخلت على المتدربين عبر الباب الصغير بشكل استعراضي جذاب أدهش الصغار، ومع الاستعراضات التي قدمتها بدأت الموسيقى في العزف، لتبدأ المدربة (ليو هوا) في الحديث:

«في هذا اليوم السعيد نعرفكم بالمخرجة الصينية المشهورة للأكروبات السيدة (لي شي نينغ)»

وصفق الجميع بحماس واضح، لتواصل (ليوا هوا) الكلام عن الموسيقى التي عزفت على خلفية الاستعراض:

«ما تستمعون إليه الآن هو الموسيقى لبرنامج (وانغ دياو) من إخراج السيدة (لي شي نينغ)، سنترك لها أن تحدثكم عن هذا البرنامج»

شرحت (لي) أن البرنامج اقتبس من أسطورة قديمة بمنطقة (يونان) الصينية ويصف مشهد لعب مجموعة من البنات من قومية داي داخل نهر في ليلة عيد البدر للسعي وراء ظل القمر على مياه النهر، وأوضحت للمتدربين:

«في هذا البرنامج دمجت الأكروبات ومختلف العوامل الفنية لخلق آفاق فنية مفعمة بالنفحات الشاعرية للمشاهدين»

تبلغ (لي) الخامسة والأربعين من العمر، وهي صاحبة قامة رشيقة وشخصية صريحة تتكلم بسرعة، وفي طفولتها لم تكن مدرّبة للأكروبات، فقد كانت تحب الجمباز وعملت لفترة مدربة جمباز قبل أن تكتشف حلمها في الحياة مع عالم الأكروبات.

قالت (لي) هذه الجمل عن نفسها وكأنها تتحدث عن كائن آخر، وواصلت تتحدث عن ذلك الآخر الذي يمثلها قائلة:

«التحقت (لي شي نينغ) بمعهد التربية البدنية بمدينة تشينغدو وأصبحت واحدة ضمن الدفعة الأولى لدراسة تخصص الجمباز الفني بالصين؛ وفي أيام الدراسة الجامعية كانت نتائجها ممتازة وفازت بالمرتبة الثانية في المسابقة الوطنية للجمباز الفني.. وبعد تخرجها الجامعي حققت أمنيتها لتصبح مدرّبة للجمباز»

«لمست (لي شي نينغ) الأكروبات عن طريق الصدفة، مما أدى إلى رابطة لا انفصام لها بينها وبين الأكروبات، وتطورت هذه الرابطة لتصبح (لي) محاضرة لممثلي الأكروبات بفرقة الأكروبات بقوانغتشو وجذبت كثيرًا من التلاميذ بعرضها الجميل وأسلوبها الفريد للتعليم»

تنفست (لي) بعمق قبل أن تنظر إلى سوسن وتقول بصوت مسموع للجميع:

«هذه الفتاة يشع من عينيها نور جميل، أعتقد أنها تحمل مستقبلاً باهرًا»

المدربة (ليوا هوا) كانت تحس بذات الشيء، لكنها لم تتفوه به، ليس لأنها حسودة أو غيورة، بل لخوفها أن تثق سوسن بذاتها بما يجعلها لا تؤدي التمارين بشكل جيد.

الآن تعلمت ليوا درسًا جديدًا لم تتعلمه من قبل، فقد وجهت لها (لي) الكلام مباشرة:

«على أي مدربة أن تكتشف طلابها وإذا افتقدت لهذا الملكة لن تكون ناجحة أبدًا»

حاولت (ليوا) أن توضح للسيدة (لي) رؤيتها وأنها كانت تدرك الأمر منذ البداية، لكن السيدة لم تتوقف عن رواية سيرتها وبذات الصيغة الأولى، صيغة الغائب:

«بعد التدريبات لثلاثة أشهر ارتفع مستوى عرض الممثلين بفرقة الأكروبات بقوانغتشو، بسرعة. فقررت الفرقة إبقاء (لي شي نينغ). وعزمت (لي) التي تحب التحديات الانصراف عن الجمباز الفني لتصبح مخرجة للأكروبات»

ومضت (لي) في استعراض الماضي قائلة:

«في تلك الفترة كانت الأكروبات غشيمة جدًا، فبالرغم من روعة المهارات التي يمتلكها المتدربون إلا أن التدريبات كانت متخلفة كثيرًا وممثلو الأكروبات كانوا بسطاء، وقد كنت أخشى أن أخذلهم وبالتالي أفشل في أن أنجح في رفع الأكروبات إلى مستوى أعلى»

هذه المرة تحدثت بضمير المتكلم بشكل مباشر، ونظرت من جديد إلى سوسن التي تحولت إلى محور الحديث في ذلك الصباح، ليس في مبنى الفرقة فحسب، بل في المدينة بوجه عام، فخلال زمن وجيز استطاعت سوسن أن تقهر الأكروبات الصينية التقليدية ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل قررت إجراء إصلاحات وتجديدات على فنون الأكروبات، بحيث تتحول إلى علم يمزج بين المعاني الروحية والجسدية، يقوم على الأساليب العلمية للتربية البدنية القائمة على رد الاعتبار للجسد الإنساني، لقد استشفت جزءًا كبيرًا من أفكارها من خلال ساعتين في محاضرة السيدة (لي)، تلك المدة الوجيزة في تقدير البعض، فقط؛ كانت كافية لشحنها بطاقة معنوية لا حدود لها، ولهذا السبب كانت نادرًا ما تزيل صورة (لي) عن ذهنها، فقد قدمت لها هذه السيدة خدمة جليلة لن تنساها أبدًا عندما أنصفتها وسط زملائها.

منذ ذلك الصباح اعتبرت سوسن، السيدة (لي)، معلمتها الأولى ولم تعد تلتفت لعمر كثيرًا بعد أن فهمت أن معلوماته مكررة ومعادة في غالب الأحيان، ووصفته مع نفسها دون أن تصرح بهذا الشيء: «انه كائن تقليدي جدًا ولا يعرف كيف يطوّر ذاته، يظن أن المعلومات التي يعيد تكرارها يوميًا هي خلاصة المعرفة في الأكروبات».

ما كان لها أن تلتقي بالسيدة (لي) مرة أخرى بعد ذلك اليوم، وربما يحدث هذا الحدث الجميل الذي تتلهف له لاحقًا، لكنها كانت تلتقي بها على صفحات الكتب والمجلات في المقالات واللقاءات التي تنشر لها، وعرفت سوسن أكثر فأكثر أن (لي) ستظل عَلمًا لا يتكرر بسهولة في تاريخ الأكروبات الحديثة، فقد منحتها أسلوبًا جديدًا وشيقًا في العرض.

أفكار سوسن كانت تدور بداخلها ونادرًا ما حكت لعمر عنها خاصة بعد أن أدركت أن الرجل من جيل مختلف، جيل أكل عليه الدهر وشرب، فهو رغم ما تختزنه ذاته من طاقة إلا أن هذه الطاقة تكلست وفترت نهائيًا لأنه ببساطة انشغل بعالم الخارج وأصبح يرى الدنيا من خلال المظهر دون أن يضع اعتبارًا كبيرًا لجوهر الأشياء حتى لو كانت أحاديثه تبدو ظاهريًا كما لو أنها عميقة.

وفهمت أن عمق عمر الظاهري من ذلك النوع الذي يعجب جيله فحسب، أما بالنسبة لجيلها فالإعجاب لن يصمد طويلاً، وقد اتضح لها بمرور الأيام التي مضت سريعًا أن عليها ألا تضع له أي اعتبار يذكر، فمهما فعل أو حاول تهديدها فلن يفلح في مقاومة نجاحها الذي أصبح واضحًا للجميع هنا في الفرقة وفي المدينة، بعد أن شاركت في العديد من العروض الاستعراضية في احتفالات عامة لمناسبات خاصة بالشعب الصيني. وكان قد بدأ بالفعل في تهديدها بإعادتها إلى السودان فورًا، ولم يكن يملك أي مبررات منطقية لتهديداته وفي الأيام الأخير أكثر من الشراب والنوم وتحول إلى كائن شرس وغريب، لم تعد سوسن تلتفت إليه أو تعطيه أي اعتبار.

من خلال علاقة سوسن مع الأكروبات فهمت أن العالم يقوم على الإثارة ولهذا السبب فمن الطبيعي أن يواجه الإنسان بالمتاعب والصدف غير السعيدة، وإذا كان عمر قد بدا صدفة سعيدة في البداية إلا أنه الآن تحول إلى وجه قبيح يجب التخلص منه. وإذا كان من الصعب عليها أن تستوعب حجم ما جرى من تحولات في زمن وجيز، فقد فهمت بأن تغير مشرفها السوداني المفاجئ حدث لأنه شعر بفقدان الوصاية عليها أو بمعنى أدق فقد قدرته على السيطرة عليها وبالتالي إمكانية تحويلها إلى كائن يطاوعه كيفما شاء بحيث يحولها بمرور الزمن إلى مطية لشهوته الوقتية.

زاد من تعقيد الأمور أن الإدارة الصينية قررت أن المشرف السوداني غير منضبط ونموذج سيئ للمتدربين، وبالتالي لابد من استبداله بأسرع وقت، وأرسلت في هذا الشأن خطابًا مستعجلاً إلى السفارة السودانية ببكين، وقعه رئيس فرقة تشنغتشو (سو تشاو فو) نصه:

●●●

السيد سفير جمهورية السودان ببكين

نلفت انتباه سعادتكم إلى أن السيد عمر الأزرق المدير والمشرف على الفرقة السودانية غير جاد في عمله، فهو يكثر من الشراب بالليل والنوم إلى منتصف النهار، ولا يتعاون بشكل إيجابي في خدمة المتدربين السودانيين، بل تسبب في الكثير من المشاكل التي يطول شرحها.

عليه نرجو من سعادتكم إيصال هذا الأمر للجهات المختصة بالخرطوم، لإيجاد البديل فورًا، حتى لا يتعطل عمل الفرقة.

ولكم فائق الود والاحترام

سو تشاو فو – رئيس فرقة تشنغتشو

●●●

علم عمر بخبر الخطاب الذي أرسل للسفارة السودانية، لكنه لم يحفل بالأمر كثيرًا فقد كان يدرك جيدًا أن علاقاته النافذة مع النظام الحاكم بالسودان سوف تجعله يستمر هنا إلى حين عودة الفرقة إلى الخرطوم، وقابل تهديد السيد (سو تشاو فو) بشيء من الضحك والسخرية قائلاً:

«افعلوا ما بدأ لكم فأنا باق هنا شئتم أم أبيتم»

لكن النتائج جاءت بعكس تصور عمر، فقد جاء رد السفارة السودانية بعد أن أعلمت الوزارة المختصة بالخرطوم، كالتالي:

●●●

السيد سو تشاو فو – رئيس فرقة تشنغتشو

لقد قمنا بمخاطبة الجهات المختصة بالخرطوم وتم تحديد مشرف جديد سيصل لمتابعة الفرقة، ويتوقع أن يكون وصوله للصين خلال عشرة أيام على الأكثر.

ولكم الشكر والتقدير على الاهتمام والمتابعة والحرص

سفير جمهورية السودان بالصين

●●●

وضع (سو) الخطاب أمام عمر قائلاً:

«الآن ماذا ستقول بعد أن قررت الوزارة في الخرطوم إرسال بديلك، اعتقد أنه قد آن الأوان لكي تحزم حقيبتك وتغادر»

لم يقتنع عمر ودخل في حوار مطول مع (سو)؛ قال:

«لم يشر خطاب السفارة إلى إبعادي، بل قال إن هناك مشرفًا جديدًا سوف يصلكم، من الواضح أنني سأظل هنا»

من جديد كتب (سو) إلى السفارة يطلب توضيحًا مفصلاً عن مصير المشرف الأول، فجاء الرد بحسب توقع عمر الأزرق، بأن الوزارة في الخرطوم لم تشر إلى إبعاد الرجل، ولهذا عليه أن يبقى كمساعد للمشرف.

تعجب (سو) من الرد، وسأل نفسه: «كيف يبقى عمر هنا وقد شرحنا أن بقاؤه يضر المتدربين»، ولاحقاً سأل ذات السؤال للسفير السوداني ببكين في مقابلة شخصية بمكتب السفير بالعاصمة.

السفير الذي لم يكن يجيد اللغة الصينية ولا يفهم إلا في حقن المرضى حيث قضى معظم سنوات حياته كمدير لمستشفى خاص بالخرطوم بحري، ردّ بعد صمت طويل:

«لا أفهم ما الذي تفكر فيه الوزارة، أعتقد أن لديهم تبريرًا للأمر»

وغادر (سو) السفارة طالبًا من السفير الاستعجال ما أمكن في اتخاذ قرار مناسب، وقال بلهجة واضحة للسفير:

«أعتقد أن مهمتي انتهت هنا، ونحن لن نتحمل أي تصرفات خاطئة تنتج عن هذا المدعو الأزرق»

●●●

عائلة الجد يهوياكين

تمسك إسرائيل جولدمان، بعقيدة آبائه وأجداده حتى في سنواته بالخرطوم، إلى اليوم الذي اختفى فيه عن المدينة، بالتحديد عن أمدرمان غربي النيل، ويقال إنه سافر وترك الكثير من الممتلكات في السودان التي ورثها عن أبيه التاجر الكبير، التي لم يعرف مصيرها فيما بعد، وقد كان ذلك قبل سنوات حكم النميري، وقبل هجرة عائلة باروخ.

كان والده الأب جولدمان، مغرمًا بالأغاني السودانية، وكانت لديه قناعة بنبوءة تحملها أغنية سودانية هي «عصافير الخريف» تقول بأن سفره في الأربعينيات إلى أورشليم القدس لن يكون الأخير، فسوف يعود ذات يوم ليستقر تمامًا قريبًا من حائط البراق كما يسميه المسلمون، فعائلته تملك عقارات في تلك المنطقة، وعندما يقول العائلة فهو يعني ذلك جيدًا. فهي مسجلة باسم جده الذي ترك ابنين، كان أحدهما والده والثاني عمه الذي توفي بمرض غامض في أصقاع وسط أفريقيا؛ كان قد ذهب في رحلة علمية لا يعرف عنها شيئًا إلى اليوم، سوى أنها من أجل العلم أو البحث الأكاديمي، فقد كان ذلك العم أستاذًا وأكاديميًا مرموقًا في جامعة براغ؛ وكان محيطه من اليهود يسمونه بالنبي الصغير

ويقولون إن الجد الأكبر جولدمان العظيم لو كان حيًا لافتخر به، ولا يعنون جده مباشرة، إنما ذلك الرجل الذي عاش في المائة السابعة قبل الميلاد الذي كان مثالاً في زمانه لكل الأشياء الرائعة في وقت كان الله سهلاً أن ينزل على الأرض ويخاطب الناس ومنهم باروخ، ويحمل العنت عنهم ثم يمضي إلى سمائه في هدوء.

في مقابل الأخ الشقيق الذي صرعه غموض الموت، كان والد جولدمان وجد الحفيد إسرائيل قد ذهب إلى أورشليم في نهاية القرن التاسع عشر في فترة مبكرة لم يكن ثمة الكثير من اليهود يرغبون في السفر إلى فلسطين، وكانت بعض المنظمات اليهودية تحاول إقناع من تستطيع بالهجرة إلى هناك حيث تغريهم بالمال والعقارات.

كان والد جولدمان (السيد يهوياكين)، واحدًا من الذين قرروا المغامرة بالذهاب إلى الأرض الموعودة، وقتها لم يتضح الأمر إن كانت تلك البقعة هي الأرض المنتظرة حقًا أم لا هل ستكون الوطن البديل حقيقة؟! لا أحد كان يتكهن بما سيفضي له المستقبل بالدقة التامة. وليس الرب موجود على الأرض ليقرر ويقدم النصائح كما كان يحدث في التاريخ.

في مطلع القرن العشرين، حمل يهوياكين العجوز ابنه جولدمان، وسافرا معًا إلى أورشليم من براغ، وهناك استلم العقارات التي

هـي الآن مسـجلة باسـم الحفيـد إسـرائيل، ووسـطها يقـع قبـو قـديم تم هدمـه بعـد ذلـك بسـنوات واكتشـف أن فيـه مخطوطـات تليـدة تعـود لقـرون غابـرة، كانـت سـببًا في مزيـد مـن الثـراء للعائلـة.

حمـل يهوياكـين الكثيـر مـن الأمـوال بعـد أن بـاع المخطوطـات في بـراغ متجهـا إلـى السـودان، بعـد أن سـرت شـائعات لـم يتـم تدوينهـا كثيـرًا، أن أرض الميعـاد ليسـت في فلسـطين إنمـا عنـد مجمـع البحريـن أو النهريـن، الأزرق والأبيـض عنـد الخرطـوم، ولـم يكـن الرجـل ليهتـم كثيـرًا بفصاحـة هـذا الـكلام مـن حيـث أسـانيده وأدلتـه فقـد كان مهتمًـا بأمـر واحـد هـو أن يكـون حيـث يمكـن للمـال أن ينمـو، وعليـه أن يجـرب فالمتـوارث مـن أبيـه أن الأرض الطيبـة تـرث الخيـر الكثيـر، وهـي الأرض الموعـودة دون شـك.

في الحـي اليهـودي، الـذي لـم يكـن خالصًـا لهـم فقـد كان خليطًـا مـن البشـر والقبائـل مـن شـتى بقـاع السـودان، نشـأ جولدمـان وشـبّ علـى الطقـوس الصارمـة لليهـودي، كمـا يجـب أن يكـون، وكان في صبـاح السـبت الباكـر يركـب مـع والـده التـرام ليذهبـا معًـا إلـى الخرطـوم ويصليـان للـرب في الكنيـس الواقـع خلـف السـينما الرئيسـية بوسـط الخرطـوم، ولا بـأس أن يبقيـا في المدينـة إلـى الظهـر حيـث يمـر الوالـد ومعـه ابنـه علـى عـدد مـن صداقاتـه في السـوق الإفرنجيـة قريبًـا مـن الموقـع في الشـارع الكبيـر، الـذي تتـراص فيـه البـارات ليـلاً والمقاهـي

والمراقص. لا يجلس يهوياكين كثيرًا فقط يكون عبوره المؤقت لعقد صفقات تجارية واستلام الأموال، ثم يعود إلى البيت قبل أن يكون الظهر قد ارتفع مؤذنًا بالجامع العتيق في أمدرمان.

يتذكر جولدمان بشكل جيد قبل أن يغادر السودان نهائيًا إلى تل أبيب، كل تفاصيل الحي الأمدرماني أو الجيتو وهي إشارة إلى الحي اليهودي استخدمت في أوروبا لأقاليم أو أحياء الأقليات، رغم أن الحي اليهودي في أمدرمان لم يكن بهذه الصفة فقد كان متعدد الأعراق. يتذكره ويعيد تركيبه في ذاكرة رجل عجوز، كيف كان يمشي صبيًا وشابًا بجوار ذلك الأب الذي كان من الصعب فهم طريقة وعيه للحياة، لقد خلف وراءه تقريبًا ابنًا بالشروط نفسها، دون أن يجلسه ذات يوم ليدرّسه أو يعلمه كيف يفعل هذا الشيء، إنها الطبيعة اليهودية التي تتناقل جينات المعرفة والتقاليد بحذافيرها دون أن تكون لها مضيعة الوقت في فصول الدراسة والمدارس أو حصص في القيم الاجتماعية، هل كان الرب قد ذرع تلك الخصائل في خلاياهم المتوارثة، ولهذا أنبتهم مختلفين عن بقية العالمين؟!

لم يكن جولدمان فيلسوفًا ليشغل نفسه بحل الألغاز الكونية الصغيرة ولا الكبيرة، كان إلى حد كبير كما فهمه صديقه باروخ الأب، يرى الحياة من منظور ذكائه الخاص أن يصل إلى أهدافه

وأن يوفر المال الكافي، كان ما يهمه كم تنفق لا كم تكسب، يرى أن هذه المعادلة المهمة في حسبة الثروة. الخطأ الكبير الذي يرتكبه الذين يبحثون عن الغنى أنهم يفكرون بعقلية كم كسبت، كان يردد هذا الدرس لباروخ، لكنه لا يقول ذلك النصح، لأي إنسان آخر لاسيما هؤلاء المسلمون المغفلين والعرب السذج بتقديره الذين يجلسون في مطعم الشواء الكبير بأمدرمان بجوار النهر، وهم يأكلون السمك كأنهم يتذوقونه لأول مرة، فشهوة الطعام عندهم عجيبة جدًا، كلما ذهبت عادت، مرة أخرى لتكون أشد من المرة السابقة، لا يمكن لطعام واحد أن يشبعهم وإلى الأبد.

كان ذلك الحي خليطًا من قوميات وأناس قادمين بعضهم من أركان أفريقيا البعيدة من الهوسا والبرنو ومالي، وبعضهم جاء من المغرب العربي، متصوفة وحمّالين أوجه عديدة من البشر الذين أوقفتهم رحلات الحجيج أو البحث عن أرض موعودة، فكل يبحث عن أرضه الجديدة، فليس أباك وحده يهوياكين من جاء لأجلها هنا، أو من اقتنع أو كان يقنع نفسه بأن ثمة سر ما وراء النهرين، كثيرون جاؤوا للسبب ذاته، غير أنه لا أحد يعلن عن سره أو يتكلم به فالبوح بمثل هذه الأشياء يذهب النعمة ويجر الإنسان إلى الخديعة التي سوف يتعرض عليها من الآخرين، فالناس درجت على أن تسرق النعم والأرزاق وتجعل كل ذي أمل منتظر يعيش في الجحيم الأرضي، لهذا كان يهوياكين شديد الحذر وهو يصلي

وهو يمشي في الشوارع وهو يدير عملياته التجارية ويجمع أمواله، كانت علاقاته محسوبة بدرجة معقولة إلى الحد الذي لا يمكن لأحد سواه أن يفهم هوية هذا الرجل بالضبط، أو طبيعة عمله.

شخص واحد فقط هو الذي يعرف الجميع هنا، فهو قطب الرحى والمعلم الكبير لهم إنه رئيس الجالية اليهودية الحاخام شيمون اشلوم، الذي كان بارعًا في نسج العلاقات الاجتماعية مع الإنجليز والسودانيين على حد سواء، وكان نشطًا في كافة الفعاليات من أعراس لمواسم فرح عديدة من طهارات الأولاد إلى أعياد رأس السنة، إلى كونه يتقدم جنازات المسلمين ويحمل العنقريب إلى أن يضع الميت في مستقره النهائي. كان يفعل ذلك عن حب، في أكثر الافتراضات، لا أحد يمكن أن يجزم، ولكن على الأقل هذا ما يقوله عنه الناس، يصفونه بالنخوة والكرامة لا ينقصه شيء سوى أن يشهد (أن لا إله إلا الله). بهذه الشروط فقد كان اشلوم يعرف تمامًا بماذا يفكر السيد يهوياكين، قبل أن يقع اليوم المحتوم الذي عجّل بسفر كلاهما.

●●●

محسن طالب

قبل أن يصل أي رد لرئيس فرقة تشنغتشو كان المشرف الجديد قد وصل إلى المدينة في منتصف النهار، رجل طويل القامة، حليق الشارب، قليل الابتسام، وعرف الجميع في لقاء سريع بأن اسمه محسن طالب، وأنه جاء بناء على تعليمات الوزير ليوقف الفوضى وليس لديه أكثر من ذلك ليتحدث به.

لم يكن لدى عمر الأزرق أي فكرة عن هذا المدعو محسن، حيث لم يسبق له أن رآه أو سمع به على الأقل، وقد حاول أن يعرف منه في سؤال مباشر علاقته بالأكروبات، فرد بإيجاز:

«هذا السؤال يوجه للسيد الوزير وليس لي»

وفي أول يوم شهدت ساحة مبنى الفرقة معركة كادت أن تكون دامية بين الطرفين، كان عمر ثملاً وكان المشرف الجديد عصبيًا ولا يقبل أي استفهامات، وعلى ما يبدو من طريقته وفقما فهمت سوسن من نظرة سريعة أنه لا خبرة له بالأكروبات وربما لم يسمع عنها إلاّ ساعة اتخذ القرار في الخرطوم بسفره إلى الصين.

لفترة مؤقتة كان عمر قد انتصر في المعركة، فها هو باقٍ في الصين، ولم يكن بإمكان (سو) اتخاذ قرار بإبعاده ما لم يتلق إشارة واضحة بهذا الخصوص من الخرطوم.

وقد حفي (سو) وأرهق كثيرًا من ملاحقة السفير السوداني دون أن يتوصل لحل، وكانت الخلافات تحتدم يوميًا بين عمر ومحسن، وتعقد الأمر بعد أن وشي عدد من المتدربين لمحسن بأن عمر كانت تربطه علاقة غير مفهومة مع سوسن، وأن اختلال هذه العلاقة لسبب غير مفهوم للجميع أدى إلى تغير طباع الرجل وتحوله إلى هذه الحالة من الشراسة وضيق الخلق والإدمان.

بعد أن فهم محسن هذه الوقائع جلس في مكتبه مساءً وسطر رسالة إلى الوزير المختص بالسودان يخبره بالتالي:

●●●

سعادة الوزير

تعلمون أنني قضيت مدة اقتربت من الشهر بالصين مع الفرقة السودانية التي تتلقى تدريبًا على الأكروبات، وقد اتضح لي خلال هذه الفترة بما لا يدع مجالاً للشك بأن المدعو عمر الأزرق، المشرف السابق على الفرقة رجل غير سليم السلوك، ووفقًا لما وردني من معلومات من المتدربين فإن حالة الرجل النفسية وسلوكه قد تعقدت بعد انهيار علاقته مع إحدى المتدربات تدعى سوسن. وهذه المتدربة من خلال شهادة المشرفين والمدربين بالفرقة الصينية هي الأفضل وأشهد على هذا الأمر بنفسي على الرغم من خبرتي المتواضعة أو شبه المعدومة – كما تعلمون جيداً – في مجال الأكروبات.

سيدي،

لقد تسبب لنا هذا الرجل في العديد من المشكلات والحرج المتواصل مع الصينيين، فهو يقضي النهار في النوم والليل في الشراب، ولا يفعل شيئًا غير إثارة الفتن، وعليه أرجو اتخاذ قرار

سريع بإعادته إلى الخرطوم حتى تنتهي هذه المأساة التي تستمر فصولها يوميًا وتقلق الجميع هنا.

محسن طالب

المشرف على الفرقة السودانية للأكروبات بالصين

مدينة تشنغتشو

●●●

في مكتبه بالخرطوم قرأ الوزير الرسالة، لكنه لم يكن قادرًا على اتخاذ أي قرار، فالمسألة في نهاية المطاف ليست بيده، فكل الأمور بيد رئيس الجمهورية، والسيد عمر الأزرق عيّن كمدير ومشرف للفرقة بناء على قرار جمهوري، كما أن علاقاته نافذة داخل النظام، لهذا من الصعب التقرير بشأنه ما لم يقل الرئيس شيئًا مختلفًا بخصوصه.

فكر الوزير مليئًا ولم يكن يجرؤ للاتصال بالرئيس أو مكتبه على الأقل لإعلامه بما يجري في الصين، خاصة أن الرئيس كان مشغولاً في تلك الأيام بمفاوضات مكثفة مع عدد من المعارضين

بالخارج، في سعي لعودتهم إلى البلد ومشاركتهم في الحكم حتى يتقي شرهم، ونادرًا ما يبقى بالخرطوم لأكثر من يومين، حيث يتنقل من طرابلس إلى القاهرة إلى الرياض إلى عدد من العواصم العربية والغربية لإنجاز المهمة التي تشغله.

«عندما ينشغل الرئيس بأمر محدد فليس من السهل أن يفكر في أمور تافهة كهذه»، هذا ما قاله الوزير لنفسه قبل أن يغادر مكتبه إلى اجتماع عاجل لمجلس الوزراء يتعلق بمفاوضات المصالحة مع المعارضين.

لهذا كان على محسن طالب أن ينتظر طويلاً حتى يتلقى الردّ، وقد حاول أن يشرح للسفير ببكين أبعاد أزمة عمر الأزرق، لكن السفير لم يكن مهتمًا على ما يبدو من إيماءاته فقد كان مشغولاً بالتجهيز لزواج ابنته الكبرى بالسودان، وقد أنفق ثلاثة أسابيع مع الزوج المرتقب بالطواف على أسواق الأثاث ببكين لشراء أفخمها وشحنه إلى ميناء بورتسودان.

هكذا كلما حاول محسن مناقشة مسألة عمر، يأتي رد السفير:

«عندما تتوصل الخرطوم لقرار معين سوف توافينا به، لا تستعجل الأمر وأحمد الله أن القرار بيدك، ألست المكلف بالإشراف على الفرقة الآن»

وفي إحدى المرات قال السفير لمحسن بعد أن ملّ من ملاحقته:

«هل صحيح أنك من أقارب الوزير ولا تفهم شيئًا في مجال الأكروبات؟»

كان أن اغتاظ محسن فردّ على السفير مباشرة:

«يقولون إنك كنت طبيبًا بالخرطوم، سبحان الله ما الذي جاء بالدكاترة إلى العمل الدبلوماسي؟!»

احتدم النقاش الغاضب بين الرجلين ولم يحسمه غير تدخل مساعد السفير الذي كان يتميز بالهدوء واللباقة، قال لمحسن:

«من الآن فلاحقًا لن نراك هنا في بكين أبقى في مكانك بمدينة تشنغتشو وإذا وردتنا أي أخبار سوف نوافيك بها»

في الطريق إلى مقره بالطائرة المحلية كان محسن يعيد التفكير في الطريقة التي وصل بها إلى الصين، خاصة بعد أن سمع ما قاله السفير، وحدث نفسه: «لا شيء يخفى على أحد، فها هي الأخبار تصل إلى بكين».

كان محسن يسترجع سنوات حياته القاحلة منذ ميلاده حتى تخرجه من الجامعة حيث درس اللغة العربية، وقد قضى شهورًا بلا عمل إلى جاءت ساعة الحظ عندما عيّن ابن عمه وزيرًا، فأصبح يلاحقه بهدف أن يُوظفه في أي موقع كان، وفي البداية

عمل سكرتيرًا بالوزارة ثم رئيسًا لقسم الأرشيف وأخيرًا أرسل إلى الصين.

الوزير عندما اتخذ قرار إرسال محسن لم يكن في قرارة نفسه متأكدًا من صحة القرار، فقد كان متوجسًا من علاقة عمر الأزرق مع الرئيس، لكن ما طمأنه بعض الأخبار التي سمعها عن أن الرئيس لم يعد راضيًا عن (الأزرق) بسبب ما نقله وشاة عن سلوكيات الأزرق بالصين وما دعمه الوزير لاحقًا بخطاب رسمي مشفوعًا بالرسائل الواردة من بكين.

مثل هذه الرسائل والوشايات ما كانت لتأثر في الرئيس في غير هذه الظروف الأخيرة، فالاتجاه نحو مصالحة المعارضين لم يترك فرصة للرئيس ليتذكر أي كائن كان، فقد كان همه الأول والأخير أن يخلق وظائف شاغرة في أي مكان وبأي مبررات، وصادف أن تزامن ذلك مع شائعات تقول بأن الرئيس أخلع عن شرب الخمر واتجه للصلاة والاستغفار، ولم يعد راغب في أي زنديق أو مدمن في حكومته، سواء كان موظفًا كبيرًا أم صغيرًا. لكن كانت هناك أسباب أخرى تتعلق بالوزير، الذي أصابه الملل من الطلبات المتكررة لابن عمه محسن الذي يريد أن يوظف كل أقاربه بالوزارة، هذا السلوك وفي ظل الظروف التي تمر بها البلاد قد يقصف بالوزير من منصبه لو وردت أدنى معلومات للرئيس، في

فترة كان فيها كل وزير متشبثًا بكرسيه خوفًا من دحرجته مع حمى المصالحة وتوبة الرئيس، وربما كان هذا السبب القوي الذي جعل الوزير يتخلص من محسن ويسارع بإرساله إلى الصين، خاصة أنه كائن لحوح جدًا وعصبي ومتسلق ولا يفهم في غير ذاته، وفقًا لتقييم ابن عمه الوزير في حديثه مع نفسه في طريقه إلى اجتماع مجلس الوزراء.

●●●

ديفيد إسرائيل

وصلت الباخرة البخارية إلى ميناء سواكن شرقي السودان على البحر الأحمر، ونزل الجميع إلا ذلك الرجل الذي بقي لنصف ساعة نائما على الأرضية الخشبية ينتظر من يقول له استيقظ أيها اليهودي، كان يحلم بأشياء كثيرة لن يتذكرها الآن في قاعة المحكمة، ما ظل بذهنه صورة ذلك الشاب اليافع الذي كان مغترًا بنفسه ليس قليلاً، وكان كلما نظر إلى المرأة أحس بالبهجة. إنه جنون العظمة الذي كان يسكنه، ولم يكن يدركه تمامًا كمرض يجب التخلص منه، إلى أن قررت به السنوات، ودربته على أمور كثيرة أخرى ليس أولها أن يكون زاهدًا في كل شيء تقريبًا حتى النظر إلى وسامته التي غسلتها الأيام بالبشاعة بعد أن تعرض لإهانات متواصلة في حياة عسيرة على أية حال.

يسأله القاضي الآن بعد مرور الذكريات في ذهنه:

«أنت متهم بقتل هذه السيدة العجوز؟ هل تعترف بجرمك؟»

يصرخ الرجل المسن صاحب القبعة المميزة والأصابع الصغيرة في يديه، أحدهما هو السبابة المقطوعة في سنوات غابرة يوم كان يعافر في تلك السفينة، في المخزن الصغير وراء غرفة القبطان، في الطريق إلى سواكن، مدينة الجن والعصافير الصباحية.

لـم يكـن ليسـمع جيـدًا ولـذا طلـب مـن القاضـي أن يكـرر مـا قـال، والقاضـي يعتبـر ذلـك قلـة أدب مـن هـذا اليهـودي الـذي لا يحترم قانون البلد ولا أخلاقه، لكن (ديفيد) ليس يهوديًا الآن إنه مسلم، لا هذا القاضي ولا كثير من الناس هنا يريدون أن يفهموا هـذا الشـيء، أنـه أسـلم. مـا زالـوا يعاملونـه كلـص أو جاسـوس أو كافر، يهودي نجس جاء ليسرق خيراتنا ويحتال علينا. كيف له أن يقنعهم ليس من وسيلة لفعل ذلك سوى الصبر أن تتغير الأحوال، ويبدو ذلك مستحيلاً.

يسمع الجميع صراخ رجل من وسط القاعة:

«أقتلوه هذا الذي يعادي الله ورسوله»

القاضي يناديه:

«كيف ترد على هذه الاتهامات؟»

«سيدي القاضي أنا مسلم»

طبعًا كان أن رفع القاضي صوته كثيرًا جدًا ليتمكن ديفيد من السماع بشكل جيد. وانتهت الجلسة بأن اليهودي يجب أن يسجن لأيام وربما شهور إلى أن ينتهي الفصل في القضية، فثمة شهود لابد من سماعهم، وأمور أخرى ليس للقاضي فيها حيلة ويجب أن ينفذ التعاليم، والكل يعرف ذلك طبعًا، لكن لا أحد تقريبًا

من الجالسين في القاعة يتعاطف مع يهودي أخرق آكل السحت، لا أحد يمكنه أن يصدق ادعاءاته بالإسلام.. مثلما حلفت سيدة مسنة كالتي اتهم بقتلها، تمامًا من حيث التركيب والشكل واللون، قالت وهي تصرخ:

«إنه ذمي»

قال أحدهم: «إنها شقيقة القتيلة، جاءت من أصقاع بعيدة في البلاد لكي تكسب القضية وتحصل على المال»

وقال رجل آخر في المحكمة: «إنه الفقر الذي يطارد الناس هذه الأيام».

آخرون تكلموا أن الشاب الذي تزوجها وجرجرها تلك المسافات البعيدة إلى هنا هو سبب ذلك الشره، إنه جاء طامعًا في الذهب.. يقال إن اليهودي يدس في خزانة بيته ذهبًا كثيرًا جدًا.

تكثر المرويات والقصص.. وديفيد في الغرفة التي لا سماء لها ولا أرض سوى التراب اللزج المبتل، الموبوءة بالحشرات، يحاول أن ينسى كل ما حوله، ليس مشغولاً بالإثبات أو النفي أو صنع شهادة عظيمة على أنه ليس كما قيل عنه. فهو يعلم الآن حقيقة نفسه جيدًا إنه ذلك الصوفي والزاهد البتول الذي لا يبحث عن شيء خارج ذاته ولا فيها، سوى الله الذي أدرك طريقه وسار

إليه، كان عليه إذن أن يراجع مع نفسه ومضات من تلك الأدبيات التي حفظها لابن عربي وأن يتذكر مقاطع من أشعار الحلاج وأن يئن مع النفري.. لماذا كان النفري يمارس الأنين لا أحد يعلم سوى ديفيد. لأن له مشاعره الخاصة باتجاه كل واحد من هؤلاء الملهمين الكبار له كما يسميهم ويحبهم. الآن سيواجه هو الموت.. كما واجهه الأبطال من قبل، فمثلما صعد الحلاج إلى المشنقة ومات حبيبًا إلى ربه فاليوم على ديفيد أن يرحل إلى السماء بهذه الطريقة المهينة لأي إنسان، لكن أن تصل إلى حيث الرب فذلك هو الرضى بعينه. ذلك الملاذ والفحوى والأمل المرتجى.

«ألم تكن ذات يوم حالمًا بالموت في سبيل الرب. ها أنت تموت ولكن بطريقة أخرى أيها اليهودي»، يحدث نفسه.

يمضي الوقت بطيئًا في الزنزانة، لا شيء يسلي البدن ولا الروح سوى الغوص في الذاكرة تأمل السنوات القاصية والدانية، والصبر على أوجاع القلب وأزماته، بعضها حقيقي وبعضها مفتعل بسبب الأزمة العابرة، فيوم يطل الموت كنهاية جليلة سوف ينحسم الوضع ويشعر الرجل بالسعادة، كان يسلي نفسه ثم يشرع في نوم عميق جدًا، في حين كانت الحشرات تمارس هوايتها في التسلق والهبوط والصعود على ذلك الجسد الممدد على الأرض الرطبة. في موقع على ما يبدو ليس بعيدًا عن النيل، فبإمكانه أن يسمع مع

الفجر أصوات الحواتة، الباحثين عن رزقهم قبل شروق الشمس وهم ينتظرون الله ليصنع لهم فرحة يومهم هذا، بأن يذهبوا إلى شارع الموردة قريبًا من هنا ليبيعوا ما حصدوا إلى تجار الأسماك الطماعين، وإذا لم تكن تملك قرارك فسوف تتنازل حتمًا لأجل أن يستمر رزقك للغد. لا ملجأ سوى الرضوخ فالمواجهة تجعل منك متشردًا في الصباح التالي. يعلم ديفيد أن القانون الذي يسير عليه سوق السمك هو هذه القاعدة الذهبية «بعْ بأبخس الأثمان واستمر في الشراء».

تداهمه أطياف من تلك الأيام وهو يجلس على كرسي خشبي متأرجح أمام مطعم السمك الذي يمتلكه سرًا صديقه اليهودي باروخ، الرجل الذي برع أيضًا في إخفاء هويته فهو يدعي الإسلام لكنه يهودي حقيقي، لو عاد موسى لتبعه وشق معه البحر. يسمي نفسه محمد علي باشا، مرات محمد علي باروخ وقد احتفظ بالاسم الأخير كدليل على التعظيم لقدر الذات التي أدركت طريق الحق وسارت عليه، رغم أن قلة هي التي تعرف أن باروخ يمكن أن يكون اسمًا مرتبطا باليهود، فالثقافة الدقيقة والمتفحصة هنا قليلة جدًا. الناس تهتم بالقشور والمظاهر.

ترتفع رائحة شواء الأسماك النيلية والبلطية بالتحديد، ومعها صوت غناء جميل من الراديو الكبير في الرف بالمطعم حيث

تختلط الموسيقى مع رائحة الشواء، يمكن له أن يتخيل كل المشهد من على البعد.

يعرف ديفيد الآن في سجنه كم أن باروخ يشعر بالحسرة والألم أنه لم يكن من أوائل الناس الذين سافروا إلى أرض الميعاد، ويعلم تماما أن صاحبه مليء بالأحلام التي تموت، لا يعرف اليأس.

وهو يردد «دا ما أول سفر». كانت حياته برغم ما فيها من إحساس ظاهري بالانسجام إلا أنها قاسية وبائسة، يعترف بذلك في أحيان يكون فيها الاثنان في سهرتهما معا وهما يقزقزان لبّ التسالي ويلعبان الشطرنج في حديقة البيت بشارع الجمهورية، وغالب ما يفوز ديفيد، فهو أزكى على أية حال وباروخ يعترف بذلك لكنه يظل يكرر:

«باروخ رجل يتعب نفسه ولا يوظف ولو قليل من حكمته وقدراته المنهوبة.. لقد أعطى هذا البلد كثيرًا دون مقابل وفي النهاية سوف يفقد كل شيء، حتى دينه»

هذه العبارات الأخيرة بالذات تحرق ديفيد جدًا وتجعله يتألم متقلبًا على حشرات الأرض الرطبة فهي كأنها قيلت له، وهو غير متيقن من مصيره، والبؤس الذي هو فيه.

هل كان جنونًا أن يقرر ذات يوم أن ينحرف طريقه إلى هنا بدلاً من أن يذهب إلى هناك إلى يافا، حيث سافر أخوانه، وهم الآن لابد يعيشون بأفضل وضع ممكن، لابد أنهم يفكرون فيه لكنهم لا يعلمون طريقه ولا أين ذهبت به الريح؟! وحتى لو بحث عنهم ليس بإمكانه بعد كل هذه العقود الطويلة أن يصل لشيء، فقد يجد أحفادًا من الجيل الجديد والغالب لن يحفلوا به، لن يهتموا بهذا الرجل الذي يحمل اسمًا سودانيًا بحتًا حتى لو أن أهل المدينة والحي القديم لا يزالون يعرفونه على أنه «ديفيد إسرائيل»، ولا سبيل لإقناعهم. في المقابل كيف نجح باروخ في أن يفعل ذلك؟ ليقنع الناس أنه محمد علي، تلك قصة محيرة لا يقدر ديفيد على فهمها، وهنا سيقول لنفسه، بأن «الذكاء أبدًا ليس من نصيبي إنه من نصيب ذلك الرجل المعجزة الذي يدعي أنه لا يفهم كثيرًا في سياسة الحياة وإنني أنا الأذكى».

●●●

(سو) والمحقق علي الطيب

الوشاية التي وصلت محسن عن علاقة عمر الأزرق مع سوسن، كان مصدرها الأساسي مراهق نما شاربه صغيرًا، يُدعى مصطفى، كان يتدرب على الموسيقى التي ترافق عروض الأكروبات، مع اثنين آخرين هما رمضان وعبد اللطيف.

مصطفى رغم ما يبدو عليه من حساسية عالية في التعامل مع الناس حيث يحسب كل خطوة بشكل حذر، إلا أنه كان من ذلك النوع من البشر الذين لا تروق لهم الحياة إلا بإزعاج من حولهم، يمارس هذه العادة في حالة من الصمت الخفي؛ وقد ساعدته الأكروبات بحيلها الشكلية على إنتاج حيل خفية موازية تعمل على الوصول إلى الهدف في أسرع وقت وبأقصر طريق.

كان مصطفى يقضي معظم الليل وحيدًا في غرفته، يعزف الموسيقى أو يفكر، في أي شيء، المهم أنه كان يشغل رأسه الصغير حتى يداهمه النوم مثل عصفور شارد عن مسقط رأسه. ولأن جسده هزيل فقد كان يلبس ملابس كثيفة داخل غرفة النوم حتى يتقي البرد الصيني القارس، ويكثر من التدخين في بعض المرات ساعة لا يستطيع أن يعدل مزاجه بالموسيقى التي يحبها جدًا، وفي مرات أخرى يكثر من شراب الشاي الأحمر، دون أن يؤثر

ذلك على الساعة التي ينام عندها، حيث ينام في الثانية صباحًا ويستيقظ في السادسة نشطًا. هذه الحيوية التي يتمتع بها ذلك الشاب يفسدها أمر واحد في تقدير عمر الأزرق الذي كان صاحب نظرة فاحصة منذ البداية في خياراته الدقيقة للمجموعة التي جاءت للتدريب، ففي تقديره أن مصطفى خبيث ومغامر لا يقدم على المغامرة الجادة إلا بعد عجز الآخرين الذين حوله واعترافهم بالهزيمة. وعندما أختاره للفرقة بعد المقابلات التي أجراها لأكثر من مائتي متقدم خاطبه بلهجة واضحة:

«ستحقق الكثير في هذا المجال، لكن عليك أن تحترم فضل الآخرين عليك»

الواقع أن عمر قال هذه العبارات، دون أن يدرك أنه المقصود بها مباشرة، وأن هذا القصد سيأتي زمانه بعد زمن لن يطول. وقد حدث ذلك ذات مساء ساعة أخبر مصطفى محسن بكل شيء، كان الوحيد الذي تبرع من بين جميع المتدربين بالفرقة لرواية التاريخ المجهول لمحسن عن شهور التدريب التي مضت.

عمر بحدسه أدرك أن مصطفى وراء التهم التي أصبحت توجه إليه من قبل محسن، تهم كثيرة جدًا ومتعددة الأغراض مثال: أنك جئت هنا من أجل فتاة ولم تأتِ بشعور وطني كما تدعيّ.. أنت غيّرت سلوكك ساعة أصبحت سوسن لا تعيرك كثير اهتمام..

وغيرها من العبارات الجارحة التي كان يسمعها عمر يوميًا دون أن يرد عليها، بعد أن توصل لقناعة ذاتية بأن عليه أن يصبر لأيام فقط حتى تنتهي رحلات الرئيس الخارجية ويخلص من مشروع الوفاق الوطني الذي يشغل البلد في هذه الأيام وبعدها سوف تعود المياه إلى مجاريها، ووقتذاك سيكون بإمكانه الشروع الفعلي في تأديب محسن ومن ورائه مصطفى الواشي الذي لم ينفذ الوصية القديمة بأن يحترم فضل الآخرين عليه، وقد كان عمر من الذكاء الكافي لفهم كل ما يدور حوله سواء كان سكرانًا أم واعيًا أم نائمًا على أسوأ تقدير، فالرجل لا تزال تطارده تلك الحالة القديمة من تداخل اليقظة بالحلم، الواقع بالخيال، بحيث لا يدري في بعض الأحيان ما هي حقيقة ما يجري في العالم الخارجي.

وإذا كانت سوسن هي الأقدر على فهم سلوكيات الأزرق والتعامل معه في أي ظرف وفق تقدير عمر نفسه، فإن الرجل صار الآن وحيدًا وعليه أن ينتظر لا غير أو يغادر إلى السودان، الأمر الذي لا يزال يرفضه بشدة، ففي مقابلته مع السفير ببكين قبل عدة أيام قال له:

«لن أعود إلى الخرطوم لأنني ببساطة جئت إلى هنا قبل ربع قرن وجئت كذلك الآن، ولن أجعل جهودي تضيع بسبب هذا المشرف الجديد الذي لا يفهم أي شيء في علم الأكروبات»

بعد عودة عمر من بكين تفاقمت الأمور بشكل غير متوقع جراء أمر لم يكن قد وضع له حسبانًا أو خطر على باله من قبل، ذلك لأن التفاقم الذي حدث كان بسبب سوسن.

فبمجرد عودة عمر ودخوله إلى غرفته في أول المساء ناداه رئيس الفرقة الصينية إلى مكتبه وقال له:

«سيد عمر أنت متهم بسلوكيات غير مقبولة في الفرقة»

في البداية لم يفهم عمر طبيعة ما يتحدث عنه السيد (سو تشاو فو)، لكنه سرعان ما أدرك أن المسألة تتعلق بالشرف، بالتحديد شرف سوسن، فقد ذكر له (سو) أن سوسن اتهمته بالاعتداء الجنسي عليها وأنه حاول اغتصابها.

يعلم عمر أن هذا الشيء لم يحصل أبدًا، كذلك حتى لو كان يحب سوسن أو يتمنى النوم معها فهو لم يفكر أبدًا في أن يفعل ذلك بالقوة والعنف، أن يتحول إلى مغتصب، فطوال عمره كان رقيقًا مع النساء، لأنه وحسب ظنه الوحيد في العالم الذي يستوعب الأنثى بشكل جيد، اعتمادًا على خبراته المتنوعة التي اكتسبها خلال أكثر من ثلاثين سنة في صحبة النساء من شتى الأمزجة.

ردّ عمر على (سو) قائلاً دون أن يبدو عليه الانزعاج مما قيل:

«أعتقد أن ثمة خطأ، هل تتحدث عني أم عن شخص آخر؟»

سو أجابه على الفور:

«لا يوجد خطأ، أنت المقصود والبنت هي التي اشتكت منك، حدث ذلك في يوم سفرك إلى بكين، وقد ذكرت أنك دخلت عليها بعد منتصف الليل في غرفتها وحاولت نزع سروالها، فقد كانت نائمة بالسروال، هذا ما أفادت به، وقالت إنها قاومتك واستطاعت أن تزيحك دون أن تصرخ أو تشعر أحد بأن هناك جريمة كادت أن تقع بالفرقة»

انتهى (سو) من رواية ما أزعج عمر بالفعل هذه المرة، فهذا يعني أن عليه أن يغادر المدينة فورًا، إن لم يغادر الصين على أسوأ افتراض متوقع.

تحرك ذهنه سريعًا في محاولة تفسير وفهم ما حدث، دون أن يصل لنتيجة. لقد فكر أكثر من مرة في أن ينام معها أن يقبض على نهديها النافرين ويعتصر ردفيها، يحولها إلى كائن ينتمي له، جزء منه، من توحشه الغائب، ولكن هل فعل هذا الشيء حقيقة أم أن مكيدة وخدعة من أي نوع كان ترتب ضده؟

لم يكن قادرًا على التفسير أو إدراك ما حدث بالضبط. ففي أكثر من لحظة وبين المنام واليقظة وفي أحلامه النهارية والليلية

كان قد اعتصر نهدي سوسن وحولها إلى رحيق زهرة أقحوان شتوية مبتلة بالعرق، هل رأت سوسن هذا الاعتصار السري وجاءت لتشتكي إلى (سو)؟!

انتهى عمر إلى أن الأمر مجرد حيلة تستهدفه، تريد بأي وسيلة كانت التخلص منه، «ولكن من حَبَكَ هذه الحيلة القذرة؟».

كان يفكر ويفكر قبل أن ينظر إلى (سو) الذي كان واقفًا عند باب الغرفة الصغيرة يقول لعمر:

«نعمت مساءً وسأراك في الغد، المهم يجب أن تعلم أن المسألة في هذه المرة بالتحديد لن تحتمل بعد أن تجاوزت حدود الأدب والذوق والأعراف التي يجب التحلي بها، لا سيما أنك مسؤول كان من المفترض أن يكون قدوة لهؤلاء الصغار المتدربين، بدلاً من أن يتحول إلى عار لبلده»

في الصباح كان عمر في مواجهة صريحة أمام سوسن في مكتب (سو)، غير أن سوسن لم تتكلم وقالت لرئيس الفرقة:

«لن أحكي أي شي ء قبل وصول ممثل السفارة في الغد للتحقيق في الأمر»

كان من المفترض أن تحل المشكلة في حدود الفرقة حسب القوانين والتقاليد وحسب تقدير (سو)، لكن المشرف الجديد

محسن الذي لا يفهم في قوانين الفرقة، كان قد أسرع لمهاتفة السفير تلفونيًا وأخبره بما جرى، وقد استغرب السفير ما حدث وقال لمحسن:

«متى جرى ذلك، لقد كان الرجل معي إلى صباح اليوم؟»

قال محسن للسفير:

«سيدي حسب إفادة سوسن فإن الجريمة كادت أن تقع قبل يومين، أي ليلة سفره إلى بكين، ونسبة لأن البنت عاشت صدمة كبيرة فقد تأخر إبلاغها بالحادثة، وعندما أعلمت رئيس الفرقة الصيني السيد سو، كان عمر معكم في بكين»

في مبنى السفارة ببكين، وقبل أن يفهم أي ملابسات أو يسمع تأكيدات، اتخذ السفير قرارًا فوريًا بإعادة عمر إلى السودان، وحسب معرفته المتواضعة بمعالجة مثل هذه القضايا التي تمس الشرف فقد رأى أن القاعدة تقول «إذا وردت أي شكوى تتعرض بمسألة جنسية فالمخطئ هو الرجل».

دون أن يتصل بالخرطوم أو يخبر الوزارة هناك بما حدث، فقد حرر مكتوبًا إلى مساعده بعمل الإجراءات اللازمة لتسفير المدعو عمر الأزرق إلى السودان في أسرع وقت نسبه لقيامه بعمل غير مسؤول أخلاقيًا.

مساعد السفير استلم مكتوب السفير ووضعه أمامه لدقائق دون أن يفكر في الأمر، وبعد أن فرغ من تدخين ثلاثة سيجارات ماركة بنسون الإنجليزية، تمعن المكتوب بدقة ثم أخذه ودخل مكتب السفير ليقول بهدوء:

«سعادة السفير اعتقد أن قرارك بحاجة إلى التروي قليلاً، فمن غير المنطقي أن تأخذ النتائج دون أن تستقصي فحوى ما حدث، يتطلب الموضوع في البداية عملية تحري أولي ومن ثم الانتقال للتحقيق ثم التقرير بمن يكون المذنب»

السفير ومن على كرسيه الدوار وبخبرة طبيب سابق، قال لمساعده:

«عندما يعطب جزء من الجسم فجيب إزالته على الفور»

ردّ عليه المساعد:

«لكن علينا أولاً أن نتأكد من صحة الأمر، هل أنت متأكد من أن الرجل ارتكب خطأ ويجب أن يبعد، كما أن دورنا يستدعي التحري أولاً قبل إصدار الحكم النهائي أليس كذلك»

لم يجد السفير قليل الخبرة بإدارة الشؤون الدبلوماسية ومثل هذه القضايا بدًا من الموافقة على ما ذكره مساعده واسمه (علي الطيب)، فأصدر أمرًا على الفور بسفر الرجل إلى الفرقة

للاستطلاع ومن ثم التقرير، رغم أنه قال له وهو يودعه في طريقه إلى المطار:

«هذا المدعو عمر تسبب لنا في حرج متواصل مع الأخوة الصينيين، لكن على أية حال سأحترم رؤيتك وأنا في انتظار ما سيفضي إليه تحقيقك»

استغرقت تحري «علي الطيب» بمبنى الفرقة في تشنغتشو مدة ثلاثة أيام كان قد استجوب فيها كل من: سوسن وعمر الأزرق ومحسن طالب وسو ومصطفى بشكل مفصل، وجميع أعضاء الفرقة السودانية والمدربين الصينيين بشكل مقتضب، ولأن المساعد علي ظل طوال حياته يحلم بالعمل في البوليس أو المخابرات فقد مارس أخيرًا مهاراته الضائعة وحلمه المفقود في الحياة، في التحري مع الجميع. وقد كان صارمًا ويحاول الدقة ما أمكن، في طريقة طرحه للأسئلة وتسجيل الإفادات بقلم أزرق على ورق مسطر، وكان كمن يخطط لكتابة رواية أكثر من كونه دبلوماسيًا أو محققًا، وقد وجد (سو) مع علي متعته في ممارسة عادته في الضحك والتمتع بالحياة أخيرًا، فمن شهور لم تمر به ساعات من المرح والسعادة كالتي قضاها مع علي الطيب، رغم أن الأخير لم يكن يضحك أو يشعر من يجلس إلى جواره بالمتعة، لكن (سو) كانت له طريقته الخاصة في اكتشاف الأشياء والتمتع

بهـا، وهـي خاصيـة اكتسـبها مـن علاقتـه الطويلـة مـع الأكروبـات مـن خلـل فهـم الإيمـاءات الماورائيـة لوجـه الإنسـان وجسـده، وحيـث كان علـي الطيـب مـن ذلـك النـوع الـذي يتحـدث جسـده كثيـرًا رغـم أنـه يظـل صامتًـا لا يتكلـم إلا نـادرًا بعـد أن ينفـث دخـان سـيجارته أكثـر مـن مـرة في الهـواء البـارد.

بعـد مـرور الأيـام الثلاثـة، بـدا مـن الواضـح أن عمـرًا لـم يتوصـل لشـيء وهـذا مـا أضحـك سـو أكثـر فأكثـر، أعقبهـا أن أخـذ علـي إلـى مطعـم خـاص في وسـط المدينـة ليتنـاولا الغـداء سـويًا، حيـث كان (سـو) يفكـر في سـماع النتائـج التـي توصـل إليهـا المحقـق «المبـدع» كمـا أطلـق عليـه سـرًا، وفي قـرارة نفسـه كان متأكـدًا ألا نتائـج كمـا يعلـم الجميـع، فقـط حشـو مـن الـكلام المكـرر الـذي يمكـن أن يقـرأه مـن مفكرتـه دون أن يقـول كلمـة مفيـدة في النهايـة؛ لكـن علـي لـم يقـرأ أي شـيء كمـا توقـع سـو.

في المطعـم شـرح المحقـق ومسـاعد السـفير لسـو باقتضـاب أن مرحلـة التحـري قـد انتهـت وأن التقريـر سـيصله خـلال أسـبوع أو ربمـا أسـبوعين، وسـتخبره السـفارة بمـا يجـب أن يتخـذ مـن إجـراءات حفاظًـا علـى العلاقـة الوديـة الطيبـة بـين البلديـن والتـي ولابـد ألا يكـون مجـرد رجـل مخمـور أو فتـاة مراهقـة سـببًا في اضطرابهـا.

وقد سأله سو بشكل واضح:

«وما الذي توصلت إليه بالضبط؟»

ردّ علي وهو يمسح شاربه الكثيف:

«هناك أشياء هامة جدًا ستقال في الوقت المناسب، وكثير من المعلومات الأخرى سيظل سريًا لا يحق لأحد الاطلاع عليه»

فهم سو أن عليه ألا يسأل وأن يقضي باقي اليوم في تأمل الرجل العجيب ويستمر في الاستمتاع بباقي اليوم، فعلي سوف يغادر في صباح الغد إلى بكين وبهذا سوف تنتهي أجمل ثلاثة أيام خلال عام محاصر بالأزمات مع هؤلاء السودانيين.

عاد علي إلى بكين وكما يقال في المثل العربي بخفي حنين، وربما هذين الخفين لم يعد بهما، وأمام السفير قام بتلاوة أكثر من خمسين صفحة كتبت بالقلم الأزرق دون أن يفهم السفير شيئًا يذكر، فالسفير كان يريد قرارًا نهائيًا، يريد تشخيصًا للمرض يقول بنتيجة واحدة، هل يبتر العضو الملتهب أم لا؟!

وكان أن قاطع السفير مساعده بسؤال مباشر:

«اسمع سيد علي، دعنا من هذا الكلام المطول، وقل لي خلاصة ما توصلت إليه»

نظر علي إلى السقف، ونفث دخان سيجارته في فراغ المكتب، قبل أن يستحضر ما يمكن أن يقوله للسفير، وعندما لم يجد ما يمكن أن يقال، استمر في التدخين، قبل أن يسأله السفير مجددًا:

«سيد علي أين أنت؟»

ردّ:

«أنا هنا، أحاول أن أصوغ بطريقة منطقية ومفهومة ما جرى، الأمر واضح في ذهني واعتقد أن قرار عدم الاستعجال كان ضروريًا»

بلهجة غاضبة قاطعه السفير:

«وماذا تعني بالضبط قل ما عندك؟»

هنا لخص علي الطيب الأمر باختصار:

«لا يوجد أمر مؤكد، من المحتمل أن يكون عمر قد حاول اغتصاب الفتاة، كما من المحتمل أن هذا الشيء لم يحدث أبدًا»

كانت ردة فعل السفير هي الاستياء والغضب، ولم يتكلم بل سحب كرسيه إلى الوراء وهو يردد:

«لا حول ولا قوة إلا بالله، أهذا الذي توصلت إليه؟»

ثم حدّث نفسه: «أما كان من الأجدى لو استبعدنا الرجل منذ البداية، هل كان من المهم أن استمع لرأي هذا الدبلوماسي المترهل؟».

وهنا كان على الطبيب الدبلوماسي، أن يتذكر مع نفسه من خلال خبرة بسيطة بالأمور أن هذه ليست القصة الأولى التي تعالج بهذا الشكل، فكثير من المشكلات كانت تعالج بذات الطريقة، ليس في سفارة السودان بالصين، بل في الخرطوم قبل ذلك، فمن هناك كان يتخرج البيروقراطيون الجدد، الذي يكثرون من التأويلات والتنظيرات وفي نهاية المطاف لا يقدمون جديدًا، وقد كان (علي الطيب) واحدًا من هؤلاء الذين تربوا في أكناف النظام الجديد في الخرطوم، فهو يدعّي المنطقية والعلمية والإحاطة بالأشياء وفي النهاية لا يأتي بفائدة تذكر.

هذه القناعة توصل لها السفير في طريقه إلى منزله، وقبل أن يتناول الغداء قال لزوجته:

«إن أكبر خطأ ارتكبته في حياتي عندما تركت الطب وأغلقت عيادتي الخاصة بالخرطوم لأصبح سياسيًا، هذه السياسة مثلها مثل المقبرة، لا توجد فيها حياة وهناك ينام الغبي والذكي، الكذاب والصادق، بجوار بعضهما البعض»

لم يقل السفير أكثر من ذلك لزوجته التي فهمت أن أمر ما قد جرى اليوم بالسفارة، ولم تسأل لأن عادتها ألا تسأل طالما لم يتحدث السفير، الذي أسرع لتناول سماعة الهاتف ليتصل بالخرطوم ويعلمهم بأن السيد عمر الأزرق سيصل إلى هناك في حدود يومين.

●●●

ديفيد إسرائيل

يتذكر ديفيد كيف خرج في تلك الظهيرة وسار داخل المدينة التي بدأت تفقد ملامحها الأسطورية، كم سمع عنها من أبيه مرويات وأنها بلد مهم بكل المقاييس، فمن لم يرها أو على الأقل يحلم بها في المنام لن يكون سعيدًا، بل بالأحرى فيه شيء من الشقاوة التي تسكنه ويصعب محوها إلا بتأمل البحر في شواطئ هذا المكان الساحر من العالم.

لربما كان الأب يتكلم من خلال تجربته الشخصية فكل إنسان في هذا العالم أسير هواجسه وخبراته وهواه، فإذا عاش في مكان ما راح يصوره على أنه أجمل بلاد العالم، وربما يحدث العكس إذا كان ذلك المكان قبيحًا بالفعل.

بالنسبة لإسرائيل – والد ديفيد – فسواجن كما يرغب أن يسميها وليس سواكن، هي عاصمة الأسرار التي انطمست منذ قرون لقد كان عرش سليمان هنا وإذا كان لليهود أن يفاخروا بمدينة حقيقية فهذا البلد أحق بالفخر. لكنه يعود للقول إن اليهود قادرين على صنع الأساطير بإمكانهم أن يحولوا أي موقع في العالم إلى أسطورة تخصهم وخرافة جميلة ينسجون من خلالها الأمل ويبنون المستقبل، فكل التصورات العظيمة في الوجود بدأت هكذا

من أفكار وخيالات صارت مع الوقت معتقدات وأحلام رائعة ومن ثم سارت أجيال لتقبض على هذا الحلم وحققته فعلاً.

كان يسمع هذه الدروس من والده لا يملها، أبدا لم يشعر بلعنة الملل ذات يوم، إلى هذه السنة المتأخرة وهو يراقب ظله وحيدًا في الحائط عندما تدلق الشمس أشعة باهتة من نافذة صغيرة في الزنزانة فلا يعود يسمع إلا أصوات حيرته بعد أن كان سكون الليل، فضجيج الناس مع حاسة سمع شحيحة يجعله لا يركز أبدًا، فكلما ارتفعت الأصوات وتداخلت لغة الطبيعة والحيوانات مع نباح البشر لم يعد ممكنًا أن تفهم إلا صوتك الخاص، قد يكون ذلك معيارًا صوفيًا بحتًا لنفس درجت على التعايش مع هذا العالم الذي بات يشكلها تمامًا، غير أنها خاصية أيضا قديمة في روحه قد اكتسبها من أب علمه الكثير، جدًا، في هذا العالم الغريب، اللغز.

الآن يبدو ذلك الأب كخيالات بعيد كأنه لم يكن فليس الدنيا إلا قصة تمضي ونمضي. ويبقى ما نتخيله لا ما عشناه. هو لا يؤمن بذلك فحسب بل يعيشه كحقيقة لا تقبل الجدل ولا التفكير، فكيف لعجوز في التسعين، عجوز قاتل أن يفكر بسوى المشنقة التي تنتظره، فخلال أيام قليلة سوف يصدر الحكم لا شك في ذلك ومن ثم سوف يعلق على الحبل ليموت. إلى أين سيمضي؟

ليس متأكدًا. هل سيكون في الجنة أم في النار في فراغ بين الأرض والسماء، أم سينطوي إلى الأبد؟

كل هذه الأفكار والتأملات كان تضعه في محك أمام عقيدته كمسلم.. أليس هو ذلك الصوفي المتأمل، ولكن بعض هؤلاء المتصوفة وحتى لو أنهم كانوا يروجون لقصص الحياة الآخرة هم في واقع الأمر لا يؤمنون بهذا الخلود، لو كان ثمة أي شيء من هذا السر الغامض فهو لن يعني سوى حلول الروح البني آدمية في الذات العلية عندما يعود الفرع إلى الأصل، وبعدها لن يعود ذلك الكائن موجودًا تمامًا، هذه هي الجنة الموعودة والمنتظرة وما سواها ليس إلا باطل.

ليس الأب وحده، فحياة السيد ديفيد بالنسبة له سنواته التي قضاها في الأرض التي أحبها ليست سوى أضغاث أو حلم مقلق، ربما كانت مسلية أو جميلة، ربما قضاها على عجل أو هي كانت كذلك واقعًا. لكن ما هو متأكد منه هو الإحساس بأن العمر مضى. أن عليه أن يقضي باقي الأيام المنتظرة في شيء مفيد يفعله إن كان ثمة أشياء مفيدة وتفعل في هذا العالم المضنك.

يخال له أنه يسمع صوت يناديه من مكان ما قصي في هذا العالم، صوت يشبه نبرة والده إسرائيل وحزمه، لينته ورعونته وهواجسه عن تلك المدينة القديمة التي قضى فيها ديفيد أيامًا

باكرة قبل أن يتخذ طريقه إلى أمدرمان ليلحق بقدره قريبًا من باروخ الذي أصبح رفيقًا لا يمل يمكن الاعتماد عليه، برغم أنه أصغر منه سنًا بخمس سنوات إن لم يكن عشر على الأقل، يصعب تقدير ذلك. ومهما يكن فاليهودي أحب إليك من أي إنسان آخر خاصة إذا كنت تفهمه وليس بالضروري أن يفهمك. حتى لو كنت مسلمًا بحق وكان يهوديًا مندسًا على أنه مسلم.

الآن مع مرور السنين داخل السجن في انتظار الحكم لتلك الجريمة القديمة قبل أربعين سنة ما زال لا يعرف كيف قتلها، تلك العجوز، لماذا لا ترضى هذه الذاكرة الخربة أن تعمل؟ وهل قتلها فعلاً؟!

لم يكن دماغه يعمل بالشكل الذي يمكنه من الاستيعاب ولا الإجابة.. إنه التيه الذي يسكنه الآن تلك الحالة التي يمتزج فيها التصوف بالوحدة بالرغبة في التماهي مع الذات العلية.

وصرخ فجأة فهل سمعه أحد، يقول لهم، لمن هم بالخارج..

«لا لست قاتلاً!»

لكن لا أحد يجيبه!

●●●

سوسو والأزرق

ليومين ظلت سوسن في حالة إعياء ما بعد استماع (علي الطيب) لإفادتها بشأن اعتداء عمر الأزرق عليها بحسب زعمها، ورغم أنها كانت واثقة من كل ما روته وقد تكلمت بقوة أمام مساعد السفير، إلا أنها لم تكن متأكدة هل كانت تروي الحقيقة أم أنها تصوغ حكاية متخيلة من خيالها الباذخ، فواحدة من الخصال التي يتعلمها لاعب الأكروبات الناجح أنه يصبح صاحب خيال دافق، ومثلما يستخدم خياله في خداع الآخرين بصريًا فإنه يستعمله أحيانًا وقد يحدث هذا الشيء دون انتباه، لخداع الناس في الحياة العامة، فهل كانت تخدع مساعد السفير؟ وهل ارتكبت ذنبًا ما تجاه عمر، خاصة أنها بكت بعمق وهي تشاهده يغادر مبنى الفرقة عائدًا إلى الخرطوم، دون أن تجرؤ على وداعه أو الاعتذار له على الأقل، ولكن هل تعتذر لأمر حدث بالفعل، تعتذر لرجل حاول أن يجر سروالها ويغتصبها في منتصف الليل.

مهما يكن الأمر فقد وجدت نفسها تبتسم من بعيد وقد التقط عمر الابتسامة المرحة وبادلها إياها، وكانت هذه الابتسامة الأخيرة التي تلقتها من مرشدها السابق ومن على البعد كفيلة بأن تشعرها بالراحة النفسية وأنها ستعود مجددًا لحياتها الطبيعية في الفرقة، رغم أن عمر لن يعود موجودًا هنا.

كان أن أحسـت أخيـرًا بالفـراغ وأن وجـود هـذا الرجـل كان ضروريًا في حياتها، بـأي شـكل كان، حتى لـو اسـتمر في زيارتها ليـلاً وحـاول بشـتى الوسـائل أن يفعـل معهـا شـيئًا. ومـن ثـم فقـد توصلـت إلـى نتيجـة ذاتيـة بـأن الإنسـان وفي كثيـر مـن الأحيـان لا يكتشـف أهميـة الكثيـر مـن الأشـياء إلا بعـد أن يفتقدهـا، وينطبـق هـذا علـى عمـر الـذي لـم يعـد هنـا.

ومـع غيابـه كان الفـراغ يتسـع في حياتهـا، وفي بعـض اللحظـات كان ينتابهـا شـعور بـأن عليهـا أن تقطـع التدريبـات وأن تسـافر علـى الفـور إلـى السـودان لهـدف واحـد فقـط، أن تقابـل الرجـل الـذي جـرح كرامتهـا، وفي تقديرهـا أن المـرأة لا تحـبّ إلا الرجـل الـذي يشـعرها بأنهـا أنثـى مهمـا كانـت الطريقـة التـي سـلكها لكـي يثبـت لهـا أنهـا أنثـى تفيـض بالحيويـة والجسـد الثـري.

مـا يقـارب مشـاعر وأفـكار سوسـن، كان يـدور بذهـن عمـر في طريقـه إلـى السـودان، فمنـذ أن غـادر بوابـة مبنـى الفرقـة إلـى أن وصـل بكـين وإلـى أن نـزل في الخرطـوم، كان غيـر قـادر علـى فهـم مـا جـرى بالضبـط! وقـد تعـب عقلـه في التفكيـر ومحاولـة الوصـول للحقيقـة، وعندمـا عجـز تـرك الأمـر دون أن تغـادره صـورة سوسـن وهـي تـؤدي العديـد مـن الألعـاب البهلوانيـة بطريقـة ماكـرة، مجسـدة أكبـر دليـل علـى براعتهـا في تطويـع الجسـد.. هـذا الثـراء الـذي تمنـى

أن يطوع لأجله هو وحده دون غيره. لكن هذا الحلم لم يتحقق، فقط تحقق جزء ضئيل منه، مجرد بداية وشروع نحو الحلم، عندما داعب النهدين الصغيرين في الثديين الممتلئين، وبعدها سمع صوت سوسن يرتفع شيئًا فشيئًا، كانت قد استيقظت من نومها مذعورة لتقول له:

«يكفي هذا يا عمر، لم أكن أتوقع منك هذا الخطأ الكبير»

ومن ثم كان أن مشاعره قد جُرحت بالعبارة التي تلت ذلك:

«كنت اعتبرك بمثابة أخي أو أبي، لماذا قررت أن تقتل الأشياء الجميلة بيننا بهذه السهولة؟»

مرة ثانية وجد عمر ذاته تغرق في التساؤلات المتكررة:

«لماذا فعلت ذلك، ولما الاستعجال، ثم يقطع تساؤلاته بسؤال كان من الصعب العثور على جواب له:

«هل فعلاً حدث منك هذا أم أنها الخديعة التي صنعها الآخرون أصبحت حقيقة تصدق من قبلك أنت قبل الآخرين أنفسهم؛ حتى لو لم يحدث ما ذكروا وأقسموا عليه باسم الله بهتانًا!»

●●●

وردة إسرائيل

تتذكر سوسو الآن وبعد مرور السنين وهي في طريقها إلى والدها تعالج معه وحشته ووحدته، أن تاريخًا جديدًا قد صيغ في حياتها، ربما ليس لها أن تقبل به أو تفرضه لكنها على أي حال، هي جزء منه، لقد تعاملوا معها هنا في تل أبيب بوصفها يهودية سودانية، وكان لها لابد أن تأخذ بالتقاليد اليهودية الأوروبية، شئت أم أبيت عليك أن تفعل ذلك وألا سوف يتم رفضك، ما كان يساعدها هو لون بشرتها التي لا تشير إلى بلد كالسودان، لهذا فالأفضل أن تلغي عن الذاكرة المحيطة بك كونك جئت من هناك، من الخرطوم، كان هذا قرارها الذي أجبرتها عليه الظروف والحياة هنا.

بالنسبة لها فأبوها كان ذلك النموذج الذي تحتذي به وعليها أن تقلد خطواته، فهو قد أوجد لنفسه واقعًا جديدًا، ومنذ أن جاء إلى هنا لم يعد إلى السودان مطلقًا، ربما في بعض الأحيان يكتفي ببعض التهويمات التي يطلقها في سنوات خرفه، كما ترى سوسن وتشاهد، وهي الآن تحمل اسمها الجديد. وردة إسرائيل Israel Rose ذلك الاسم القديم الذي كان ينادونها به في كمبوني في تلك السنوات الباكرة من حياتها.

كان باروخ العجوز جالسًا في مكانه نفسه الذي لم يغادره منذ الأمس وبجواره الكلب جيمي، الذي أبدى فرحًا بوصول سوسو، وهو يلوّح لها بذيله، كأنه يرى فيها خيالات بنيامين الذي يتكلم عنه الأب الآن بإلحاح، يصرُّ على أن ذلك الابن موجودًا في هذا العالم، ولم يكن لسوسو أن تقدر على إقناعه بسوى الزيف، أن ترمم قصته المتوهمة بمزيد من الوهم.

برغم التخاريف كان قادرًا على الكتابة على الحاسوب القديم، يكتب عن تلك الأيام القديم في ذلك البلد الآخر، النوستالجيا المتأخرة أم الظرفية ليس لسوسو أن تعثر على تفسير معين، وللحظة بدت لها كل الحياة سواء حياتها أو حياة والدها مجرد جزء من خرافة عقيمة عليها أن تصدقها، وقد حصل ذلك ألم تعش الخديعة طوال عمر طويل؟ ألم ترضى بواقع جديد وحياة أخرى محتملة متسارعة ولاهثة دون أن تقف لثواني لتسأل نفسها، هل أنا أمثل نفسي أم شخص آخر؟ أين تلك الفتاة القديمة سوسو، ولماذا أصبحت هي «إسرائيل روز»؟

أمسكت ببعض الأوراق التي كانت عند طرف الطاولة، قريبًا من الطابعة الليزر، يبدو أن والدها محمد علي قد أنهاها بالأمس، وقد كتب فيها؛ وهي تقرأ على عجل لسبب غير مفهوم لها، كأنها تخشى أن يكتشف أحد تاريخًا آخرًا غائبًا لا تريد له أن ينبش لسبب ما.

«.. حتى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين فقد عاش في السودان مئات اليهود، الذين دفعتهم فيما بعد الظروف وقيام دولة إسرائيل إلى الهجرة إلى «الأرض الموعودة»، سنذكر من هؤلاء يهوشع ليفي، وهو تقريبًا واحد من آخر الذين بقوا في الخرطوم قبل هجرته وهو صاحب المقولة الشهيرة: سنموت قريبًا ولن يكون هناك من يذكرنا».

كان ليفي يتحدث عن كونه يهودي سوداني في إسرائيل بلا ذاكرة وبلا تاريخ سوى ذكريات الأرض الجديدة، التي عليه أن يصدقها ويمحو ذاكرته القديمة، بالنسبة لباروخ فليفي شخص مهم في مذكراته هذه، حتى لو أنه لا يعرفه بشكل شخصي، لكن بالنسبة له كباحث فهو يحرص على تدوين هذه التفاصيل ومعرفتها بدقة، قصة الناس الذين تغيرت ظروفهم وأحلامهم في واقع جديد، يقولون إنهم نجحوا ولكن بعضهم يقف مع ذاته مثل السكران ليواجه القدر بأنه كاذب وعليه أن يصدق ولو لحظة، بأنني لست أنا، أنا ذلك الشخص الذي تركته هناك. هل هذا الشعور يختص به أم هو إحساس عام يعيشه أغلب الناس الذين يمرون بمثل ظروفه؟ كما حصل مثلاً مع اليهودية العراقية «إيله شوحاط» التي كتبت قصتها في كتاب «ذكريات ممنوعة» وأثار جدلاً عندما ترجم من الإنجليزية إلى العبرية في تل أبيب، حيث اعتبره البعض نقمة على الهوية الموحدة، فقد كانت الأكاديمية

التي تقيم في نيويورك وتعيش عائلتها في إسرائيل تعتبر أن الظل هو من يطارد الأصل، وأن أهلها ظلوا في أحلك الظروف متمسكين بالعراق القديم الذين تركوه منذ الخمسينات، كان باروخ يحدث معه مثل ذلك الشيء نفسه، فبعض مواقف شوحاط حاضرة معه كالنظر إلى تلفزيون السودان ومحاولة تلمس الأماكن القديمة، في موضعها الجديد، هل تغير شارع الجمهورية مثلاً؟ هل أختلف عن الواقع التليد له لحياة جديدة؟ كيف أثرت سنوات ما بعد ردة النميري وقيامته بأن أعلن الأحكام الإسلامية سنة ١٩٨٣ وانتقم لتاريخه مع الشيوعيين؟ كثير من الأحداث مرت بهذه البلاد إلى دخول سنوات حكم البشير الطويلة والقاسية، كيف كان سيكون له أن يعيش في هذا الواقع الجديد؟ لقد سمع مثلاً عن قصة صديقه المرمي في السجن إلى اليوم بجريمة ملفقة، هي في كل الأحوال لابد أنها كذلك، ليس لرجل مسلم وصوفي، أن يقتل خاصة إذا ما جاء من خلفية يهودية، قد يصعب فهم المعادلة لكنها واقعية، فهو يعرف من يكون ديفيد إسرائيل بالضبط.

تتوقف سوسو، وردة إسرائيل، مع المذكرات، مع الصور في مكتبة والدها والقصص القديمة، ينتابها شعور وهي تسمع أخبارًا مقلقه عن السودان، بعد فشل المحتجين في اقتلاع النظام وحديث وسائل الإعلام عن مقتل ٦٥ شابًا في التظاهرات. لا تعرف ما هو شعورها بالضبط اتجاه ذلك، لكن ثمة أمر ما يقلقها يجعلها

لا تحس بسوى ألم كبير في قلبها. الإحساس العظيم بتيه الحياة الإنسانية، وهي التي ما تزال عازبة لم تتزوج، لقد وهبت حياتها وجسدها للأكروبات وعوالمه الساحرة، دون أن تجد بعد مرور السنين أنها تحقق من شيء يخصها، هل يكون الإنسان في أغلب الظروف يخدع نفسه لأجل اللاشيء، ليواجه في نهاية المطاف خدعة مستمرة أنه هنا في هذا الكوكب، ألن ينتهي هذا القلق المثير الذي بدأ من الطفولة واستمر إلى اليوم، الذي ترغب في التحرر منه ثم تفشل. لماذا عاشت قصصًا كانت فاشلة في الحب، هل هي الأنانية، إحساس قديم بأنها لم تحب سوى ذلك الرجل الأكبر منها سنًا بأضعاف، عمر الأزرق، وأين هو يا ترى؟ ليس لها من أي خبر ولا ذاكرة عنه سوى اليوم الذي غادر فيه الفرقة في الصين.

●●●

مذكرات باروخ

أنا ويهوشع ليفي تجمعنا مأساة واحدة فكلانا جاء من الخرطوم، لو كانت لي القدرة لجئت للتضامن معك ولخرجنا معه أيها المهندس الفنان.. أنت في الثمانين وأنا كذلك. الفرق بيننا أنا أكثر قدرة على التماهي مع الحياة بالكتابة والخيال، ربما أنت رجل بلا خيال. فمهندس السفن، لا أظن أنه سوف يكون عظيم التخيل.

في ذلك الصباح خرج ليفي كما كتبت الصحف من شقّته الجميلة في تل أبيب، متوجّهًا إلى جامعة بار إيلان، بعد أن تم إعلامه قبل يوم واحد فقط وعن طريق الصدفة بأن مؤتمرًا يعقد هناك في الجامعة تحت عنوان «الخروج، الهجرة.. التهجير والتشريد»، الذي يقام في ذكرى اللاجئين اليهود من الدول العربية. المفارقة أنهم تذكروا الجميع إلا اللاجئ السوداني، الجالية اليهودية القادمة من السودان ليس لها من ذكر ولا وجود، لهذا كان وجود ليفي غريبًا عندما وقف ليخبركم من يكون هو! ذكر فيما ذكر السيد باروخ، العالم المعروف. وقد كانت تلك مفاجأة للكثيرين.. هل باروخ سوداني في الأصل؟! أو يمكن القول بأنه من يهود السودان.

لقد وقف ليفي بشجاعة ليصرخ في الحضور:

«من يذكرنا؟ عندما نموت قريبًا لن يصبح لنا من ذكر أبدًا على ما يبدو»

كان قد لفت الانتباه.. وأثار الضجيج والتصفيق الطويل الذي نقلته بعض الصحف في اليوم التالي.. وقليل من الشاشات.. لكن الانترنت بقي شاهدًا على كل شيء.

●●●

قليلون سمعوا بالجالية السودانية التي يبلغ عددها أقل من ألف شخص في ذروتها، بخلاف جاليات أخرى كالعراقية والمغربية واليمنية مثلاً. فاليهود المغاربة يصل عددهم إلى قرابة ٢٦٠ ألفًا والجزائريون إلى ١٣٥ ألفًا، والعراقيون إلى ١٢٥ ألفًا، والتونسيون ٩٠ ألفًا، و٧٥ ألفًا من مصر، مقارنة مع هذه الأعداد فإن ٥٠٠ يهودي فقط قدموا من السودان لا يعتبر رقمًا كبيرًا بأي حال من الأحوال.. لهذا من حقهم أن ينسوا ليفي، ألا يتذكره أحد، البقية الـ ٥٠٠ الآخرون كانوا قد تفرقوا في أوروبا وأمريكا وبلدان أخرى في العالم.

●●●

في عام ١٩٥٦ حصل السودان على الاستقلال، وكان ذلك عام شؤم على اليهود لأن أغلب مصالحهم كانت تقوم مع الإنجليز، بدأت الهجرة إلى إسرائيل قبل ذلك واستمرت، ولم يعمل يهود السودان على إنشاء منظمة أو جسم خاص بهم ربما لقلة العدد وربما لأسباب أخرى.... (يترك باروخ فراغًا هنا لا يكمله.. ربما كانت عنده أفكار كان يريد أن يسجلها لاحقًا).. غير أن الأرقام ليست هي المهمة هذا ما ترويه كل القصص الإنسانية.. قصتي أنا شخصيًا تقول ذلك.. قصتي أبنتي سوسو، هي حكاية لحالها عن أزمة أنا الوحيد المسؤول عنها، بخلاف ذلك فهي تعود إلى نزاع داخلي عميق له أسبابه المتعلقة بالهوية والوطن والأرض.. هل كانت تعاني شرخًا ما أنها ليست سودانية أو العكس.. ومن ثم لم تجد نفسها أنها إسرائيلية؟ وهل كان تمردها المبكر يصب في هذا الإطار؟ ليس لي من إجابات واضحة؟ لهذا أكرر بأن الأرقام ليست كل شيء. هي لا تقول سوى بيانات كاذبة في أغلب الأحوال.. الأرقام تحكي عن المنتصرين والفائزين لكن للأسف وعبر التاريخ ليس لها أن تجسد مأساة الضحايا..

●●●

وصل ليفي إلى تل أبيب وعمره ١٦ عامًا وهي سن مبكرة بخلاف آخرين وصلوا في أعمار أكبر.. كان يحلم بأن يكون بطل

جمبـاز.. لا أعـرف هـذه العلاقـة الدفينـة بـين الرياضـات البدنيـة والهويـة المنهوبـة، كمـا حصـل مـع سوسـو.. أنـا نفسـي ربمـا فكـرت في سنين مبكرة أن أكون لاعب كرة قدم.. تدربت لفترة وجيزة مع نـادي المريـخ السـوداني ثـم تركـت الموضـوع ليـس لأنـي غيـر ماهـر، بـل لأن أبـي كان يـرى أننـي يجـب أن أتفـرغ لمـا هـو أهـم وعلـيّ أن أكمـل دراسـتي وقتهـا بالسـفر إلـى لنـدن. ومـن باريـس حيـث أكملـت الماجسـتير هنـاك وعـدت لأكـي انشـغل بالأعمـال التجاريـة لعائلـة بـاروخ.

الأرقـام لا تعنـي شـيء هنـا. مقابـل الذاكـرة والإرث الإنسـاني والهويـات.. رغـم مـرور أكثـر مـن ٦٥ عامًـا فقـد ظـل ليفـي يقـاوم الأوجـاع ويحـن لـلأرض القديمـة عنـد ملتقـى النهريـن..

●●●

مـن الشـخصيات التـي بقـت في ذاكرتـي قويـة إلـى اليـوم.. الحاخـام سـلومون الـذي علمنـي أشـياء عظيمـة لا تـزال في ذاكرتـي وبهـا سـلكت مسـارب في الحيـاة، فهـو الـذي زرع في مسـألة مهمـة هـي أن الإنسـان تكاملـي بـين جسـده وروحـه عليـه ألا يهمـل هـذا علـى حسـاب ذاك، سـيكون مسـؤولاً هنـا عـن شـغفي بالنسـاء، حتـى لـو أن ذلـك الشـيء كان متباعـدًا، هـو نـوع مـن الشـعف الروحانـي الـذي يصعـب تفسـيره أو شـرحه، وليـس لأي امـرأة أن تسـتهويني أبـدًا..

يبدو في ذهني المشوش اليوم وهو ذلك الرجل الطويل المهاب، يقف أمامنا في الكنيس في تلك الغرفة الصغيرة التي استأجرها بالخرطوم ليدرسنا نحن الصغار التعاليم التوراتية وبعض الدروس في اللغة العبرية والصلاة بشكل سليم. وبعض الأحيان يقطع هذا الوقت المخصص للجد ليحكي لنا عن قصصه الخاصة، عن حبه لأرض السودان وكيف وصلها، قادمًا من مصر في حوالي عام ١٩٠٠ عن طريق القطار الذي كان الوسيلة الوحيدة الأسهل التي تربط القطرين، ولم يكن معه وقتها سوى ماكينة خياطة زينغر فقد كانت حرفته هي الخياطة والنسيج، كان يخبرنا أن الإنسان لابد له من حرفة والأنبياء كانوا كذلك.

«ليس لك أن تقتات على الكلام فحسب»، تلك واحدة من حكمه الباقية في ذهني مع حكم أخرى لا حصر لها.. تلاشت مع الزمن والسنين والذاكرة الخربة.

كنا نسميه أحيانًا شوعا، وهو اسم العائلة.. ومرات يختفي عنا فنعرف أنه سافر لفلسطين، وواحدة من هذه الرحلات هي التي هيأت له أن يصبح الرجل اليهودي الأهم في التعاليم الدينية في مجتمع الخرطوم بعد تزكيته من قبل حاخام طبريا في الجليل الشرقي، كان قد رأى فيه ما يمكن أن يكون إشراقًا لتوكل له مهمة حاخام بلاد كوش، الاسم القديم للسودان الشمالي.

في عام ١٩٤٩ مات وبكينا عليه جميعًا وكانت جنازته مهيبة جدًا حضرها خلق لا حصر لهم من السودانيين ومن جميع أنحاء البلاد، ما يعكس لوحة من إرث التسامح في تلك البلاد، واحدة من السمات التي لا يمكن تجاوزها في مجتمع السودان.

●●●

كنت محظوظًا أني تزوجت في الخرطوم، فالجالية اليهودية كانت قليلة جدًا، لي هنا تذكر قصة طريفة تحدث مع كثيرين أنهم كانوا يأخذون أبنائهم إلى مصر بحثًا عن زوجات يهوديات.. قصتي أيضا فيها كثير من الالتباس مع تحول عائلتنا إلى الإسلام لاعتبارات كثيرة.. لا أعرف إلى اليوم هل أنا مسلم أم يهودي أم مسيحي مثلاً؟ فحكاية الأديان تمثل بالنسبة لي سؤالاً مربكًا ومتداخلاً، لرجل عايش معظم الأديان شرقًا وغربًا وفي النهاية رأى أن الدين الحقيقي يكمن في الصدق والمحبة.. الصدق مع الذات هو الأساس والنوايا الحسنة. هل يمكن لي أن أحكم على نفسي بدقة أنني كنت إنسانًا جيدًا أم لا. لا أعلم!

●●●

من المسائل التي واجهتنا قضية اللغة العربية، النطق بالحروف بشكل واضح. لكن بالنسبة لي فأنا أتحدث الدارجة السودانية بحكم مولودي في الخرطوم، لهذا لم يكن لي من مشكلة

كبيرة بخلاف والدتي مثلاً وحتى أبي الذي عانى من هذه العقدة كما أتخيلها في بعض المرات..

●●●

عدد من اليهود.. ربما أكون استثناء لا أعلم. عائلتي التي تغلفت بالوشاح الديني الإسلامي، هي التي أنقذتني في مرحلة ما.. هؤلاء عانوا من معاداة السامية، أعرف أطفال عانوا في صغرهم من ذلك. كانوا يخرجون إلى الأحياء فينقض عليهم آخرون بالضرب. لكن لا يمكن لي أن أقول بأن هذا الفعل كان قاعدة.. فالأطفال يتشاجرون عادة.. لكن ذوي البشرة الشقراء يسيرون في الاتجاه الصعب أكثر من غيرهم في كل الأحوال. أعرف صديقًا ربما لا استحضر اسمه الآن أو صورته مع تشوش ذاكرتي، كانوا ينادونه:

«يا يهودي، ستكون جمرًا لجهنّم»

وأشياء أخرى تقال مثل: «اليهود ملعونون، وبعد ذلك أموات المسيحيين».

المقصود أن اليهودي سيظل ملعونًا حتى لو غير دينه، وربما هذه اللعنة هي التي طاردت ديفيد إسرائيل ذلك «الصوفي المعذب»، وهذا عنوان قصيدة لشاعر السودان الذي مات شابًا في

الثلاثينيات من القرن العشرين، التيجاني يوسف بشير الذي تكلم عن وحدة الأديان وكان شبيهًا لحد كبير بابن عربي. في المقابل فالمسيحي، ستكون أمامه فرصة إن تاب.

●●●

كانت حرب ١٩٤٨ بداية لتعصب ضد اليهود، كانوا يصرخون فيهم «يا يهود إذهب إلى فلسطين»..

في كثير من القصص التي أعرفها.. كانت ثمة مفارقة.. أن ينادونه بأن يذهب إلى هناك وفي الوقت نفسه هم يقولون إن فلسطين للعرب فقط.. لا أعرف كيف ستحل هذه المعادلة؟!

كنا نسميها سرًا حرب الاستقلال، وكانت أمي تقول:

«ماذا نفعل هنا؟ لماذا لا نذهب إلى هناك؟»

أبي كان مترددًا والواقع كان يقول لنا أشياء كثيرة، وبالنسبة لي لم أكن أقدر على فهم هويتي بالضبط، لأي أرض أنتمي. برغم أن هناك من عانوا وهم يمشون في الشوارع خشية أن يتم الاعتداء عليهم، إلا أنني لم أعرف هذه المشكلة أبدًا. وظل ذلك ربما أشبه بلغز لي إلى اليوم. قال لي مرة أحد الأصدقاء السودانيين:

«أنت سوداني وليس لك من أرض أخرى غير هنا»

وأخبرني آخر:

«الدم السوداني ورائحة التراب قد حلت فيك.. فلا تحاول أن تبحث عن هوية ثانية»

●●●

لا زلت أتذكر طائرة الداكوتا التي أخذت واحدًا من أصدقائي.. إنه جولدمان.. ودعته في مطار الخرطوم، في رحلته إلى مطار اللد في إسرائيل، كانت الطائرة قد توقفت به على الحدود المصرية السودانية للتزود بالوقود، أعتقد أنه له أخت بقيت لأنها تزوجت من سوداني، مرة سألته عنها فحاول كعادته التهرب من الإجابة.. مرات يقول إنها ماتت وأحيانًا يخيل لي أنه يكذب، فقد صرح مرة بأنها موجودة في إسرائيل وأن زوجها معها.

هناك محطات مهمة لكل من يصل في البداية خاصة إذا ما كان في سن صغيرة، كأن يزور شهادة ميلاده ليستطيع أن يحصل على حقوق قانونية أو وظيفة في الجيش مثلاً. لا أعرف السبب الذي دعا جولدمان لكي يفعل أمرًا كهذا رغم وضعه المادي الممتاز.

●●●

في أعقاب ثورة المهدي في عام ١٨٨٥ ومقتل الجنرال الإنجليزي تشارلز غردون باشا، حاكم السودان، فقد ساءت أحوال اليهود

الذين كانوا في السودان منذ وقت مبكر في القرن التاسع عشر أيام الحكم التركي، لأهداف تجارية في الغالب، بعضهم جاء من تركيا، يروي أبي عن عوائل أجبرت على اعتناق الإسلام بالتالي الذهاب إلى المساجد والزواج من نساء مسلمات، كان ذلك سلاح ذو حدين، فالبعض أصبح سودانيًا بحق، لاسيما بعد أن أنجبوا بنات سمراوات البشرة، واليوم يصعب أن نقول إن هؤلاء ليسوا بسودانيين لقد انتفى التاريخ اليهودي القديم، بل أن هناك من لا يحب أن يتذكر ذلك مطلقًا.

يتحدث أبي عن ثماني أسر يهودية أجبرتْ على العيش كمسلمة واعتمدت أسماء عربية، أذكر منهم مثلاً، بن تسيون الذين أصبحوا بنسيون، حاخام وقد أصبحوا حكيم، ومندل الذين أصبحوا منديل. وقد كان لتلك الأسر زعيم اسمه بن تسيون كوشطي، اعتاد على الصلاة كيهودي متخفّيًا في الصباح، قبل ذهابه إلى المسجد.

بعض اليهود في فترة المهدية عملوا مع رجالات المهدي واستفادت منهم الحكومة في أعمال كالترجمة والتدوين، فقد كانوا متعلمين، ولاحقًا كان اليهود أول من أنشأوا المطابع وأصدروا الصحف في البلاد، لا أحد يشكك في ذلك التاريخ إلا من يجهله.

●●●

لـم تكـن كل الأسـر اليهوديـة التـي جـاءت السـودان أو عاشـت فيـه ثريـة بالمعنـى الدقيـق، لكـن ثمـة خاصيـة مهمـة في كل هـذه الأسـر وهـي الاحتفـاظ بمعـدل مناسـب مـن الرفـاه، لقـد كانـوا مدربـين بشـكل مـا علـى الحيـاة المزدهـرة، كان لهـم إجـادة تامـة للتعامـل مـع متـع الدنيـا واسـتثمار الفـرص واقتنـاص الوقـت بشـكل جيـد، وبـدا ذلـك نشـازًا في المجتمـع آنـذاك. حتـى الأسـر اليهوديـة العاديـة كانـت تملـك أبسـط فـرص العيـش، فـأي بيـت تجـد فيـه الخادمـات ومـن يرعـى المسـنين مثـلاً، وهـذا لا يوجـد بالمقابـل لـدى السـودانيين. كانـوا يعيشـون حيـاة ترفـه حتـى بأبسـط الأمـوال، لا يدخلـون إلا الأنديـة المرفهـة ويحرصـون علـى شـراب الشـاي علـى ضفـاف نهـر النيـل كعـادة ابتدروهـا منـذ زمـن بعيـد، أيضًـا طقـس آخـر هـو السـينما في نهايـة الأسـبوع.

●●●

مـرة تعـرض والـد إسـرائيل جولدمـان لمضايقـات مـن بعـض السـودانيين في قصـة تتـراوح تفاصيلهـا حـول أمـور تجاريـة في الغالـب، طابعهـا الحسـد، وقـف ليصـرخ أمامهـم في الشـارع أمـام الجميـع، سـاعة قالـوا لـه أنـت لسـت سـودانيًا:

«أنا سودانيّ أكثر منكم. ولدتُ هنا»

ليس لـي مـن علـم دقيـق إن كان قـد ولـد بالفعـل في الخرطـوم أم لا، لكنـه كان يشـير إلـى أمـر خطيـر، كان مـن الصعـب علـى البعـض

أن يدركه إلا النخبة المتعلمة.. في تلك الأوقات ربما أيام الإنجليز لم يكن موضوع الهوية السودانية قد اتضح بشكل وافٍ.

●●●

شكّل استقلال السودان ١٩٥٦ بداية لتاريخ جديد عانى منه البعض، ممن تهم اتهامهم بالتجسس لصالح إسرائيل، وكانت ردة فعل من يقابل تهمة كهذه أن يرد بالعبارة الشهيرة التي أبتكرها جولدمان:

«أنا سودانيّ أكثر منكم. ولدتُ هنا»

هناك من تعرض للاعتقال، هذا تاريخ لا يمكن دسه، أبي كاد أن يتعرض لشيء من ذلك. لكن القصة دافعها أيضا أمور أخرى. السياسة والهوس الديني مع الفكر القومي.. كان من الصعب فصل الأمور عن بعضها، ومن يفكر بغير ذلك سوف يجد أنه مخطئ. لهذا يجب ألا نأخذ التاريخ على أنه نسيج قرار جماعي موحد، ففي بعض الظروف تكون الأمور شخصية ومباشرة.

ترتب عن تلك الأيام السوداء، أن هناك من هاجر وترك حتى ممتلكاته الشخصية والعامة، لم يفكر فيها، لك أن تتخيل ذلك..

●●●

قبيل وصولي بعام إلى هنا، كان قد وصل أحد أبناء اليهود من تل أبيب إلى الخرطوم، والهدف كان ترحيل رفات عدد من موتى اليهود الذين دفنوا بالمقبرة اليهودية، تم استخراج عظام أكثر من

١٧ شخص، وكان ذلك القرار له دلالة كبيرة، التحرر من الأرض يصعب تفسيره بغير ذلك، حتى لو أنه أخذ أبعادًا سياسية. وتم تهجير تلك الرفات إلى إسرائيل حيث دفنت من جديد هناك، وفي مقابل ذلك فقد دمرت قبور عديدة أخرى في السودان وتحطمت على مر السنين، وفي عام ١٩٨٠ كانت عملية أخرى قد تمت كنت أنا طرفًا فيها هذه المرة لا يتعلق الموضوع بنقل رفات بشرية بل باستخراج كتب توراة قديمة نقلت إلى جاليات يهودية في إسرائيل وفي بلدان أوروبية.

●●●

يهود السودان الذين تفرقوا في الأرض، أغلبهم باتوا ناجحين في مناصبهم الجديدة.. هل فقدهم السودان أم فقدوه؟ صعب تقدير الوضع. يمكن لي الإشارة لأسماء عديدة، ممن أصبحوا أثرياء وتولوا مناصب مرموقة في مجالات عديدة.. هناك من أصبح رئيسًا لشركات بناء ضخمة مثل موريس ليفي، أو رئيسًا لرابطة أطباء القلب في أمريكا مثل سلفادور شوعا، أو مهندسًا نووي مثل عزرا شوعا، الذي عمل في مشاريع غاية السرية مع البنتاجون الأمريكي، الحقيقة التي يجب أن تقال في النهاية أن أكثر من ٩٥ بالمائة من المواطنين في إسرائيل لا يعرفون بأنه كان هناك يهودًا في السودان.

●●●

الفهرس	الصفحة
الإهداء:.....	٥
سوسو:.....	٧
الجد باروخ:.....	١١
سوسو:.....	١٧
باروخ:.....	٣٣
سوسو:.....	٣٧
محمد علي باروخ:.....	٤٩
سوسو:.....	٥٥
الابن باروخ:.....	٦٥
سوسو:.....	٧١
محمد علي باروخ:.....	٨١
عمر الأزرق:.....	٨٧
الابن باروخ:.....	٩٩
سوسو:.....	١٠٥
باروخ جولدشتان:.....	١١٧

سوسو:..... ١٢١
باروخ الابن جولدشتاين:..... ١٣٥
سوسو:..... ١٤٣
باروخ.. وإسرائيل جولدمان:..... ١٥٣
عمر الأزرق:..... ١٦١
جيمي:..... ١٦٩
سوسو:..... ١٧٧
عائلة الجد يهوياكين:..... ١٨٩
محسن طالب:..... ١٩٥
ديفيد إسرائيل:..... ٢٠٣
(سو) والمحقق علي الطيب:..... ٢١١
ديفيد إسرائيل:..... ٢٢٥
سوسو والأزرق:..... ٢٢٩
وردة إسرائيل:..... ٢٣٣
مذكرات باروخ:..... ٢٣٩

حقوق الطبع محفوظة للناشر

أطلس

للنشر والإنتاج الإعلامى

يحظر نشر أو اقتباس أى جزء
من هذا الكتاب إلا بعد الرجوع
إلى الناشر